هجاء البخلاء في العصر العباسي

د/ عبد العزيز بن محمد الخويطر
المملكة العربية السعودية
جامعة القصيم - كلية اللغة العربية

مقدمة:

نظرًا لما أصاب الحياة العربية في العصور العباسية من تحولات مادية ومعنوية كبيرة جراء امتزاج العرب بالأجناس البشرية المتنوعة لاسيما الفارسية امتزاجًا اجتماعيًا وفكريًا وثقافيًا، فإن ذلك الامتزاج أدى إلى إفرازات منوعة لا عهد للعرب بلونها أو حجمها.

وكانت ظاهرة البخل وكثرة البخلاء وتفشي فلسفة تسفيه الكرم والكرماء والتنويه بالبخل والبخلاء من أكثر الظواهر انعكاسا على صفحة الأدب العباسي بعامة والشعر منه بخاصة، وقد تجلى ذلك على هيئة زخم شعري كبير أبدع من خلاله كثير من شعراء العصر في تناول هذه الظاهرة مصورين لكثير من جوانبها وحيثياتها وأبعادها، فاتحين بذلك أفقا جديدا من آفاق الشعر لا عهد للشعر العربي بسعته ودقته وعمق معانيه وسخرية صوره.

وقد ذهب الشعراء في قصائدهم ومقطعاتهم هذه كل مذهب في تصوير أنماط هذا البخل وأصناف ذلاء البخلاء في سياقات من النقد والتهويل والاستهجان تارة، وفي سياقات من السخرية والضحك والتماجن تارة أخرى.

وقد رأيت في ذلك كله وفي الكم الكبير من نماذجه وأنماطه الشعرية مادة حيوية غنية بطرافة التوجه وإثارة التجربة وجاذبية الطرح... فرأيت أن أخصها بدراسة آمل أن تكون مثمرة ما لعله يكون إضافة إلى الجهود الساعية إلى ارتياد مكامن الإبداع لاسيما في عالم شعرنا القديم.

مدخل:

كان البخل ولا يزال خصلة مذمومة التقت على ذمها غالبية المجتمعات الإنسانية والفطر البشرية السليمة كما ذمها الإسلام ذمًا شديدًا وحذر منها، غير أن بعض الطبائع البشرية المنتسبة إلى غريزة التملك وحب الاستئثار تطغى أحيانًا على كثير من الناس حتى تظهر على هيئة بخلٍ تعرفه المجتمعات وتحدده بحسب الثقافة السائدة لديها، فتجمع عليه أحيانًا وتختلف حوله أحيانًا أخرى، كما قد يتدخل المنطق لتكييف أو تأويل بعض مظاهره وسلوكياته، على نحو ما صور لنا ذلك بشار بن برد عندما قال[1]:

وللبخيلِ على أمواله عللٌ ... زرق العيون عليها أوجهٌ سود

ولقد ذم العرب البخل والبخلاء منذ جاهليتهم، يقول عنترة بن شداد[2]:

تجافيت عن طبع اللئام لأنني ... أرى البخل يشنا والمكارم تطلب

ويقول حاتم الطائي[3]:

أشاور نفس الجود حتى تطيعني ... وأترك نفس البخل لا أستشيرها

ويقول عروة بن الورد[4]:

وإنـي لا يـريني البخـل رأي ... سواءٌ إن عطشت وإن رويت

وقد علمت سليمى أن رأيي ... ورأي البخل مختلف شتيت

ومن المعلوم بداهة في الفطرة الإنسانية أن البشر بقدر ما يكرهون البخل والبخلاء فإنهم يحبون الكرم والكرماء، ومع التقاء الفطر البشرية بعمومها على ذلك؛ لانتساب البخل إلى الرذائل وانتساب الكرم إلى الفضائل إلا أن مابين الأمم والشعوب من تباين الظروف واختلاف المؤثرات قد يجعل أمة في ذلك أربى من أمة «أما الكرم الذي اتصف به العرب منذ القدم كابرًا عن كابر وتباروا فيما بينهم في إظهاره وكسب محمدته وفضل الاتصاف به واستنفدوا فيه نصف أشعارهم بين متمادح به ومثنٍ به على غيره»[5]، فقد صار بلا شك وسامًا لهذه الأمة برّت فيه سائر الأمم حتى قال حاتم الطائي أشهر كرماء العرب[6]:

وإني لعبد الضيف مادام ثاويًا ... ومـا فيّ إلا تلـك مـن شـيمة العبـد

بل لقد بالغوا في حسن استقبال الضيف والتلطف به ومراعاته حتى قال قائلهم:

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ويخصب عندي والمحل جديب

وحتى قال طفيل الغنوي[٧]:

لحافي لحاف الضيف والبيت بيته ولم يلهني عنه غزال مقنع

أحدثه إن الحديث من القرى وتكلأ عيني عينه حين يهجع

بل وحتى نظم الحطيئة ميميته الشهيرة مجسدا خصلة الكرم العربية وأنها جبلة جبل عليها العرب، حابكا ذلك في قصة رائعة بلغ التأزيم فيها حده عندما قال ابن ذلك الأعرابي لأبيه[٨]:

أيا أبتي اذبحني وقدم له طعما

ويبرر ذلك بخشية العار عندما قال:

ولا تعتذر بالعدم عل الذي طرا يظن لنا مالا فيوسعنا ذما

وفي مقابل التغني بإكرام الضيف والقيام بواجبه... وفي مقابل الإشادة بالكرم والكرماء وتوظيف ذلك كإحدى أهم مقومات المديح منذ الجاهلية فإن هجاء البخلاء والمقترين في حقوق الأضياف أصبح من أهم مقومات الهجاء عند العرب منذ الجاهلية، هذا بشر بن أبي خازم الأسدي يهجو بني لأم بالبخل فيقول[٩]:

ألا أبلغ بني لأم رسولا فبئس محل راحلة الغريب

لضيف قد ألم بها عشاءً على الخسف المبين والجدوب

وهذا من بعده الحطيئة يهجو العبسيين فيقول[١٠]:

وجدتكم لم تجبروا عظم مفرم ولا تنحرون الثيب في الحجرات

والحجرات هي سني القحط، وهي الجدوب جمع جدب كما في بيت ابن أبي خازم السابق.

وعلى نحو من ذلك هجاء الأخطل التغلبي لبني كليب بن يربوع، إذ هجاهم بالبخل على الأضياف إلى درجة السخرية المرة حيث قال[١١]:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأمهم بولي على النار

وهو بالتمام عكس ما مدح به حسان آل جفنة الغسانيين حيث قال[١٢]:

يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

غير أنه عندما أظل العصر العباسي العرب واصطبغت حياتهم بأصباغ الحضارة، وخالطوا الأمم والشعوب الأخرى بدرجة لا سابق لها، وأثر هؤلاء في طوابع الحياة العربية لاسيما الفرس منهم، فإن أمورا جديدة طرأت على قضية الكرم المعهودة عند العرب، حيث أصبح الكرم سلوكا فيه نظر، وأصبح البخل فلسفة لا تعدم القائلين بها، فإذا بالأمر يبلغ بالبعض حد تأليف الكتب وكتابة الرسائل للدفاع عن البخل والبخلاء وتسفيه الكرم والكرماء، هذا مثلا سهل بن هرون أحد أبرز أعلام الكتاب، والمقرب من المأمون ومن وزيره يحيى البرمكي، والقيم على مكتبة دار الحكمة في العصر العباسي الأول يصطنع البخل ويكتب الرسائل في الدفاع عنه، يقول عنه صاحب الفهرست: «شعوبي المذهب شديد العصبية على العرب، وله في ذلك كتب كثيرة ورسائل في البخل»[١٣].

ويورد شوقي ضيف رحمه الله بعض قصص بخله العجيبة التي لا يتسع المقام لذكرها[١٤].

ويروي له الجاحظ رسالة كتبها إلى بني عمه من آل راهبون في الدفاع عن البخل وذم الكرم[١٥]. وقد بلغ الأمر حد الظاهرة التي لم يعرفها العرب من قبل حتى لقد أفرد الثعالبي في كتابه (الظرائف واللطائف) بابا لمدح البخل وبيان فضله ومآثره[١٦].

ولم يكن كتاب البخلاء للجاحظ إلا صدى لهذا الواقع الذي لم يعرفه العرب من قبل، ولم تكن هذه الدراسة إلا استجابة لتداعيات هذه الظاهرة وتساوقا معها.

هذا وسوف تتناول هذه الدراسة ظاهرة هجاء البخلاء في العصر العباسي من خلال أربعة محاور هي:

١- الهجاء العام بالبخل.

٢- الهجاء بالتطفيل والشره والنهم.

٣- هجاء الأرغفة والبخلاء بها.

٤- هجاء المطابخ والقدور والخوانات والسلال.

أولا: الهجاء العام بالبخل:

يلاحظ كل من يتتبع شعر الهجاء في العصر العباسي بما فيه الهجاء الساخر أن الهجاء بالبخل هو أكثر أنماط الهجاء شيوعا في العصر على الإطلاق، فهو فضلا عن الهجاء العام بالبخل تنتسب إليه من قريب أو بعيد أنماط عديدة أخرى من قبيل: هجاء

التطفيل والشره، وهجاء الأرغفة، والمطابخ والقدور والسلال والخوانات وهجاء الأضياف، وهجاء الهدايا والعطايا، وهجاء من قصروا في مكافأة الشعراء من الأعيان كالخلفاء والولاة والأمراء...وغيرهم فضلا عن بعض الأنماط الأخرى.

ومن قبيل الهجاء العام بالبخل قول دعبل بن علي الخزاعي[17]:

وصاحب مغرم بالجود قلت له	والبخل يصرفه عن شيمة الجود
لا تقضين حاجة أتعبت صاحبها	بالمطل منك فتزرا غير محمود
كأنني رحت منه حين نوّلني	بمدمج الصدر من متنيه مقدود
كأن أعضاءه في كل مكرمة	ينزعن مستكرهات بالسفافيد

فصاحبه هذا يعيش حالة عذاب دائم، فهو مغرم بالجود يتوق إليه لكن البخل يغل يده فلا يستطيع الإنفاق، ويصور دعبل عطاءه الذي استخرجه من هذا البخيل بشق الأنفس وكأنه استخرجه من عمق صدره أو قدده له من متنيه، ولا عجب فهذا حاله دائما، فإذا ما أعطى عطاء – على قلة ما يعطي – فكأن كل عضو من بدنه ينتزع منه السفود انتزاعا، وهو بهذا يذكرنا بما جاء في الحديث الشريف عن حال الكافر عند الموت وأن روحه تنتزع من بدنه كما ينزع السفود من الصوف المبلول، والسفود قضيب من حديد يستعمل للشواء حيث يشك به اللحم.

ويقول ابن الرومي في أحد أشهر مهجوبه وهو: ابن فراس[18]:

بخيل يصوم أضيافه	ويبخل عنهم بأجر الصيام
يدس الغلام فيسوليهم	جفاء فيشتم مولى الغلام
فهم مفطرون ولا يطعمون	وهم صائمون وهم في أثام
فيحتال بخلا لأن يفطروا	على رفث القول دون الطعام
لقد جاء باللؤم من فصه	وتم له البخل كل التمام

فابن الرومي يصور بخل صاحبه هذا تصويرا ساخرا بحق، فهو ويال على أضيافه الذين ينزلون به حتى إنه لبخله ليدعهم صياما ولكن صومهم غير محتسب عند الله، وما ألطف ابن الرومي حين صوره متواريا عن أضيافه وقد أرسل إليهم غلامه في مجلسهم وكأنما آثر هو أن يطل عليهم إطلالة شماته وتفكه، فغلامه هذا لا يحوطهم بعناية ولا يكرمهم بطعام ولا شراب بل ولا يتلطف بهم وإنما ديدنه جفاؤهم وقلة الكلام معهم وعدم إخبارهم عن سيده بشيء، حتى إنه ليهيج شتائمهم وسبابهم على سيده، فهم صائمون ولكنهم في حال فطر ولا فطر وفي حال صوم ولا أجر لا بل إنهم وقد فاتهم أجر

الصيام لم يسلموا من وزر الفطر، وكما أنهم لم يصوموا ابتداء فيؤجروا لم ينالوا طعامًا فيفطروا، وإنما كان فطرهم على الوزر من رفث القول وفاحشه، وأخيرًا يشهد ابن الرومي لابن فراس هذا بما اجتمع له من خصلتي اللؤم والبخل، فلقد جاء بذلك كله من أسه وفصه فللبخل دره!!.

وفي مقام آخر يقول ابن الرومي هاجيًا آل طاهر جميعًا بعد أن خذله سليمان بن طاهر[١٩]:

رمت نداكم يا بني طاهر ... فرمت مخ الذر في عسرته
أملت من رفد سليمانكم ... ما أمل المعتز من نصرته

فابن الرومي يعاتب نفسه التي أطمعته في كرم آل طاهر وعطاياهم وما كان هذا إلا مستحيلًا استحالة استخراج مخ الذر من الذر، وهو يجمع إلى سخريته هذا الخبث حين يلمز سليمان بن طاهر بالتنكر لصاحبه المعتز وعدم الوفاء له والقعود عن نصرته في مواجهة الترك الذين خلعوه وقتلوه، فما كانت آمال المعتز بسليمان ونصرته إلا كآمال ابن الرومي في سليمان بن طاهر وكرمه سرابًا في سراب!!.

أما بشار بن برد فيهجو بهجائه الساخر آل سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، فيقول[٢٠]:

يأيها الراكب الغادي لطيته ... لا تطلب الخبز بين الكلب والحوت
دينار آل سليمان ودرهمهم ... كالبابليين حفا بالعفاريت
لا يوجدان ولا يرجى لقاؤهما ... كما سمعت بهاروت وماروت

فهو لا يسوق خبر الخبز وضلال من طلبه لديهم إلا ليتوصل إلى تجليلهم بعار البخل المطلق رامزًا لذلك بالدينار والدرهم مصورًا إياهما في صورة ساخرة وقد حفت بهما عفاريت الجن تحرسهما حتى استحال الوصول إليهما، لا بل إنهما (لا يوجدان...) في الحقيقة والعيان وإنما في الخبر والسماع وما أشبههما في ذلك بهاروت وماروت، فالناس تسمع بهما وبسحرهما لكن أحدًا لم يرهما قط!!.

وقال بشار أيضًا يهجو سليمان بن علي العباسي[٢١]:

يا سوءة يكثر الشيطان إن ذكرت ... منها التعجب جاءت من سليمانا
لا تعجبن لخير سال من يده ... فكوكب النحس يسقي الأرض أحيانا

ويهجو ابن الرومي عبد الله بن محمد بن يزداذ ساخرًا من بخله وسوء رده وصفاقة وجهه مع الشعراء داعيًا من أراد مديحه من الشعراء أن يعدله الهجاء سلفًا فبخله مجرب

وبواره مضمون، يقول ابن الرومي[٢٢]:

إذا ما مدحت أبا صالح ... فأعدد له الشتم قبل المديح
فإني ضمينك عن لؤمه ... ببخل عنيد ورد قبيح
وأنى يجود ولا عرقه ... كريم ولا وجهه بالصبيح

وهو كما نرى يرد ذلك كله فيه إلى أصله اللئيم ووجهه الكالح.

وقال ابن الرومي أيضا في مهجوه (عيسى) الذي طالما تندر ببخله[٢٣]:

يقتر عيسى على نفسه ... وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره ... تنفس من منخر واحد
عذرناه أيام إعدامه ... فما عذر ذي بخل واجد؟
رضيت لتفريق أمواله ... يدي وارث ليس بالحامد

فهو يصور بخله تصويرا غاية في الطرافة والبراعة، ويجعله بخلا عاما فيه قد أتى على كل شيء، حتى إنه لشدة بخله واقتصاده لو استطاع لاقتصد في استهلاك الهواء أثناء التنفس ولتنفس من منخر واحد بدل منخرين!!، وهو لا يعذره على بخله هذا وهو صاحب جدة وأموال، وأخيرا ولشدة غضبه منه يدعو عليه بموت عاجل وعلى أمواله بوارث عاق يأكلها غير حامد ولا شاكر ولا مترحم.

وفي مقطوعة أخرى لابن الرومي يصور بخل عيسى هذا تصويرا أكثر دقة، حتى إنه ليوضح ذلك من خلال الحديث عن تعامله مع شيء تافه وهو (الخلال) الذي تخلل به لأسنان بعد الطعام، حيث يقول[٢٤]:

يختل حولا بخلال واحد
ثم يكر كرة المعاود
عليه بريا بمدى حدائد
عودن إصلاح الخلال الفاسد
ثم يقول كالقنوع الزاهد
أغنى عن الطارف حفظ التالد
لا خير في البادئ غير العائد
إن أبا موسى لعين الماجد

فعيسى هذا لبخله يتخلل عاما كاملا بخلال واحد، وهو يعمل دائما على إصلاحه وبريه وتحديده بالمدى التي قد اعتادت إصلاح الأخلة على وجه الخصوص

وكأنما خلقت لها فقط! ثم يفلسف عيسى صنيعه هذا على أنه لون من الوفاء لهذا الخلال (لا خير في البادئ غير العائد) ويختم ابن الرومي ببيت مثقل بالسخرية المرة التي لا تحتاج إلى توضيح (إن أبا موسى لعين الماجد).

أما أبو العتاهية فيهجو يزيد بن معن بن زائدة لبخله مقارنا بسخرية بينه وبين أبيه معن حيث يقول[٢٥]:

بنى معن ويهدمه يزيد ... كذاك الله يفعل ما يريد

فمعن كان للحساد غما ... وهذا قد يسر به الحسود

يزيد يزيد في منع وبخل ... وينقص في النوال ولا يزيد

ويبدع أبو نواس في هجاء العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث الخزاعي، مخاطبا قومه بني الأشعث بأن اللوم لن يجدي في علاج ما فيه من بخل، وأن ذلك لا يمكن أن يحدث إلا برده إلى بارئه ليطبعه من جديد ويعيد خلقه من رأسه حتى قدميه، حيث يقول[٣٦]:

قل لبني الأشعث لن تصلحوا ... باللوم عندي أمر عباس

حتى تردوه إلى ربه ... يطبعه خلقا من الراس

ألوم عباسا على بخله ... كأن عباسا من الناس

وإنما العباس في قومه ... كالثوم بين الورد والآس

ويرد أبو نواس متعجبا من نفسه؛ إذ كيف يلوم عباسا هذا الذي لا يمكن بجبلته هذه أن يكون من البشر!، وأخيرا يتوج أبو نواس سخريته هذه بعباس عندما يشبهه وحاله بين قومه الكرام من بني الأشعث بحال الثوم ونتنه بين الورد والآس وعبقهما!!.

ويلقانا علي بن جبله المعروف بـ(العكوك) بهجاء ساخر يصبه على قوم من معاصريه مصورا بخلهم من خلال تصاوير بديعة حيث يقول[٣٧]:

أقاموا الديدبان على يفاع ... وقالوا: لا تنم للديدبان

فإن آنست شخصا من بعيد ... فصفق بالبنان على البنان

تراهم خشية الأضياف خرسا ... يؤدون الصلاة بلا أذان

فقد نصب القوم طليعتهم على مرتفع من الأرض كي يؤمن لهم إنذارا مبكرا من الأضياف وحذروه النوم أو النعاس...ثم رسم العكوك لطليعتهم هذا صورة مضحكة عندما طلبوا منه أن يبلغهم عما قد يعن له من الأشخاص ضيفا كان أو سواه بالتصفيق

لهم، غير أنهم وقد علموا أن التصفيق قد ينبه هذا الضيف إلى وجودهم فإنهم زودوه بنصيحة عبقرية وبتصفيق لم يسبقوا إليه لا يمكن أن يفطن له الأضياف ولكنه لا يخفى على هؤلاء المتوجسين الحذرين الذين قد أرهفوا أسماعهم بخلا بما لديهم من طعام، وتبلغ سخرية المحكوك من بخل هؤلاء ذروتها عندما يعرض لنا القوم خرسا يتفاهمون بالإشارات بدلا من الكلمات، ويبلغ في ذلك ذروة الذروة عندما يترخص هؤلاء البخلاء في دينهم فيسقطون الأذان من صلواتهم غير آبهين إلا بصلاة خوف تدرأ عن زادهم الضيفان!!.

وقريب من هذا في إخفاء البخلاء لكلامهم خشية اهتداء الأضياف إليهم قول دعبل بن علي الخزاعي في قوم آخرين[٢٨]:

قوم إذا أكلوا أخفوا كلامهم ... واستوثقوا من رتاج الباب والدار

لا يقبس الجار منهم فضل نارهم ... ولا تكف يد عن حرمة الجار

فهم لبخلهم يتخافتون عند الطعام، وهم قبل ذلك يوصدون الأبواب أيما إيصاد، ليس فيهم مقدار ذرة من الندى، حتى إن جارهم لا يستطيع أن يحصل ولو على قبس من نارهم، لا بل إنهم جمعوا إلى كل هذا لؤما وإساءة لا تنفك أيديهم تترى بها على حرمات جيرانهم!!.

وقال ابن الرومي في ميمون بن إبراهيم[٢٩]:

غدونا إلى ميمون نطلب حاجة ... فأوسعنا منعا وجيرا بلا مطل

وقد يعد المرء البخيل كراهة ... ألا رجاء أن يعان على البذل

وقال اعذروني إن بخلي جبلة ... وإن يدي مخلوقة خلقة القفل

طبيعة بخل أكدتها خليقة ... تخلقتها خوف احتياجي إلى مثلي

فألقى إلينا عذرة لا نردها ... وكان ملقى حجة اللوم والبخل

فابن ميمون هذا لم يجد مناصا من مواجهة القوم بقراره الذي لا عودة عنه بمنعهم وحرمانهم، فالأمر بالنسبة له جبلة لا انفكاك لها، ولك أن تتخيله وتتخيل يده وهو يقول: وإن يدي مخلوقة خلقة القفل، قفل لن تستطيع فتحه ولا فصم حلقته، والأكثر مثارا للسخرية من ذلك تأكيده على تلازم الجبلة وخلقة الكف المقفلة في استكمال صفة

البخيل فيه، والأدهى من كل ذلك ذهابه إلى فلسفة بخله وتبريره، وأنه ما تخلق بخلق البخل إلا خشية احتياجه إلى بخيل لئيم مثله! ويسلم ابن الرومي ليمون بأنه صاحب حجة لا ترد، وأنه قد ألهم حجتي اللؤم والبخل معا!!.

ويروى أن قوما استضافوا دعبل بن علي يوما فلم يطعموه حتى غلبه النوم، فناموا ثم انتبه قبلهم وصنع بيتين وكتبهما في الحائط وانصرف بعد أن قال[٣٠]:

هناكم أنكم قوم كرام وأن النوم بينكم طعام

أتاكم زائر فأجعتموه فلما نام أشبعه المنام!!

وكما مر بنا سابقا فإننا نجد ابن الرومي في غير مناسبة يتحدث عن بخل البخلاء مصورا إياهم تصويرا ساخرا مشبها أيديهم بالأقفال التي لا سبيل للوصول إلى ما أقفلت عليه كما في قوله في هجاء ابن جراشة[٣١]:

إن كفيك لقفل محكم يا ابن جراشه

فعمود القفل يمنا ك ويسراك الفراشه

ليس ينجو المفلس من كف فيك إلا بالحشاشه

هكذا كل لئيم خالط اللؤم مشاشه

ضيق الصدر بخيل ضيق الله معاشه

وكساه الخوف والذلة وابتز رياشه

فابن الرومي يتخيله قفلا كبيرا يتشكل من كلتا يديه (فعمود القفل يمناك ويسراك الفراشة) والفراشة جزء مهم من القفل، ثم يمارس ابن الرومي براعته في التصوير عندما يشبه كفيه بمصيدة خطيرة للنقود لا يرى النور ما وقع فيها منها، وأن فلسا محظوظا يفلت منها لا يفلت إلا بحشاشته ورمقه الأخير وبقية روحه!!، وبعد أن صعد في صورة بخل ابن حشاشة يذهب ابن الرومي كعادته إلى تبريرها بما هو أدهى وأمر منها مستكملا صولته الهجائية على ممدوحه، فما ذلك كله إلا لجبلة بخل شديد وضيق صدر أحكمهما لؤم قد خالط مشاش ابن جراشه منذ خلقته فلا أمل في انفكاكه منه أو تحوله عنه، ولهذا فإنك لم تجد شيئا يمكن أن يجدي معه سوى دعوة موتور ثقيلة جاد

بها عليه بأن يضيق الله معاشه ويبتزه رياشه وأن يلبسه لباس الذلة والخوف!.

وهجا دعبل بن علي رجلا من أهل عصره يقال له (عمرو) مقارنا بينه وبين آخر كريم يقال له (سالم) فقال[٣٢]:

أضياف سالم في خفض وفي دعة ... وفي شراب ولحم غير ممنوع

وضيف عمرو وعمرو يسهران معا ... عمرو لبطنته والضيف للجوع

والمفارقة المضحكة حقا هنا اشتراك عمرو وضيفه في السهر والسمر وافترافهما في الجوع والشبع!!.

ويهجو دعبل الخزاعي رجلا من معاصريه يقال له (ابن قزعة) مصورا بخله تصويرا ساخرا بحق حيث يقول[٣٣]:

خليلي من كعب أعينا أخاكما ... على دهره إن الكريم معين

ولا تسبخلا بخل ابن قزعة إنه ... مخافة أن يرجى نداه حزين

إذا جئته في الفرط أغلق بابه ... فلم تلقه إلا وأنت كمين!![٣٤]

وتتمحور السخرية هنا حول فكرتي الحزن والكمون، أما الحزن فإن ابن قزعة مونل له لا يكاد يفارقه، وما ذلك لشيء إلا لمجرد خشيته من احتمال تعرضه للسؤال وطلب الرفد والمعونة، وأما الكمون فإنه نتيجة حتمية لهذه الخشية وذلك الحزن، فإنه إذا ما جاءه محتاج لطلب معونة فإنه يكل أمره إلى بابه الذي يحول دائما بينه وبين السائلين يوصده ويعتصم ببيته حتى ييأس طالب النوال فينصرف، لكن ذروة السخرية هنا من بخل ابن قزعة تكمن في فكرة دعبل التي يبدو أنه لابد منها لوضع ابن قزعة في مواجهة سائليه، إنها فكرة الكمين الذي لا سبيل إلى ابن قزعة إلا من خلاله، فعلى من هم بسؤاله أن يتحراه ويتربص به وأن ينصب له كمينا محكما لا يستطيع الفرار منه، وإنها لفكرة مضحكة حقا!.

وقال أحدهم في قوم بخلاء بات عندهم مع بعض صحبه[٣٥]:

فبتنا كأنا بينهم أهل مأتم ... على ميت مستودع بطن ملحد

يحدث بعضنا بعضنا بمصابه ... ويأمر بعضنا بعضنا بالتجلد

فالوجوم والحزن جراء كرب الجوع قد خيم عليهم؛ فلا هم يحصلون على الطعام ولا هم يجرؤون على السؤال عنه حياءً من مستضيفيهم، فما أشبههم بذوي ميت قد دفنوه لتوهم، وإن مشهد هؤلاء الضيوف لمضحك حقا وهم يتخافتون متسائلين عن أمر القوم وعن

ما إذا كان هناك طعام يمكن أن يتناولوه، أم أن ليلتهم ستنقضي حسره وجوعا، لكنهم لا يملكون إلا عزاء بعضهم بعضا ونصحهم بالصبر فهو مفتاح الفرج!

وقال بعضهم في جيران له بخلاء[٣٦]:

وجيرة لا ترى في الناس مثلهم ... إذا يكون لهم عيد وإفطار

إن يوقدوا يوسعونا من دخانهم ... وليس يبلغنا ما تطبخ النار

فما أبأس حال هؤلاء المساكين الذين قد زكمت أنوفهم رائحة الدخان وقتر الطبيخ والشواء وما أصعب مرآهم على النفس وهم يتحرون ويتشوفون لشيء من ذلك الطعام، حتى إذا خمدت النار وانقطع القتر والدخان وهدأت الأصوات تصرمت حبال الرجاء في أيديهم وأفاقوا من حلمهم على حليفهم الوحيد وهو الجوع! فما أشأم هؤلاء الجيرة وأبخلهم!.

ويهجو أحدهم بخيلا سئم ضيوفه تأخره عليهم بالعشاء، وصاروا في هزيع الليل وهو لا يزال يخرج ويدخل عليهم دون طائل، وهم يتوقعونه كل مرة داخلا عليهم بالطعام ولكن هيهات!. يقول:

يا قائما في داره قاعدا ... من غير معنى لا ولا فائده

قد مات أضيافك من جوعهم ... فاقرأ عليهم سورة المائده

ثم يخاطبه في بيته الثاني خطابا مثقلا بالسخرية، ليخبره بأن ضيوفه قد ماتوا جوعا أو كادوا، مردفا له بنصيحة مضحكة ولكنها ناجعة جدا، إذ نصحه برقيتهم مما حل فيهم ولكن بسورة المائدة التي ستكون بلا شك دواء ناجعا لهم!.

ومما وقفنا عليه من الهجاء الساخر بعموم البخل وتشبيه اليد في منعها بالقفل ما قاله ابن عيينة في هجاء قبيصة المهلبي عندما استماحه فلم يعطه فذهب مغضبا حتى علم به داود بن يزيد بن حاتم فبعث إليه وترضاه وأحسن إليه...

فقال ابن عيينة[٣٧]:

داود محمود وأنت مذمم ... عجبا لذاك وأنتما من عود!

ولرب عود قد يشق لمسجد ... نصفا وباقيه لحش يهودي

فالحش أنت له وذاك بمسجد ... حكم بين موضع مسلح وسجود؟!

هذا جزاؤك يا قبيص لأنه ... جادت يداه وأنت قفل حديد

فابن عيينة يضرب المثل الساخر في الفرق بين جود داود وبخل قبيصة رغم اتحادهما

في النسب بالفرق بين شقي عود واحد جعل نصفه لمسجد ونصفه الآخر لحش يهودي وهو الكنيف، ثم يقسمهما فيقول (فالحش أنت له) أي أنك شق العود الذي يوضع للحش (وذاك لمسجد) أي وذاك الشق الآخر للمسجد، ثم يلخص مفارقته الكبيرة قائلا (كم بين موضع مسلح وسجود) !! ثم يصارح قبيصة بأن هذا ما كان ليكون لولا جود داود وبخلك الذي جمدك تجميد قفل الحديد على ما أقفل عليه!!.

ومن رائع التصوير الساخر لدى الهجائين الذين تصدوا للبخلاء ونعتوا أكفهم بشدة القبض والإمساك قول أحدهم في بخيل[٣٨]:

لو عبر البحر بأمواجه ... في ليلة مظلمة بارده

وكفه مملوءة خردلا ... ما سقطت من كفه واحده!!

«وقيل لبعضهم: أما يكسوك محمد بن يحيى؟ فقال: والله لو كان له بيت مملوء إبرا، وجاء يعقوب ومعه الأنبياء شفعاء والملائكة ضمناء يستعير منه إبرة ليخيط بها قميص يوسف الذي قد من دبر ما أعاره إياها، فكيف يكسوني؟!» وقد هجا أحدهم محمد بن يحيى على هذا المعنى فقال[٣٩]:

لو أن دارك أنبتت لك واحتشت ... إبرا يضيق بها فناء المنزل

و أتاك يوسف يستعيرك إبرة ... ليخيط قد قميصه لم تفعل!!

فيا لهذه الصورة الطريفة المعبرة التي اختزلت البخل بمعناه الشامل لتصبه على هذا البخيل سيئ الطالع!!.

ومن روائع الهجاء الساخر الذي سدده الهجاؤون إلى البخلاء ما قاله رجل أعرابي من أهل اليمامة نزل ضيفا على مروان بن أبي حفصة (وهو من شعراء الموالي) «فأخلى له المنزل ثم هرب مخافة أن يلزمه قراه في هذه الليلة، فخرج الضيف واشترى ما احتاج إليه، ثم رجع وكتب إليه»[٤٠]:

يا أيها الخارج من بيته ... وهاربا من شدة الخوف

ضيفك قد جاء بزاد له ... فارجع وكن ضيفا على الضيف

ويجمع ابن الرومي في أبي سعيد النوبختي البخل واللؤم في قصيدة ساخرة حافلة بالصور الطريفة لهذا الرجل الذي أصبح نهبا بين كرم يتكلفه وبخل راسخ فيه لا يأذن

له بإتمام كرمه، حيث يقول[٤١]:

وفي أبي سعيد لؤم ... وإن قرى وتبسم
يقري الضيوف ولكن ... يقري الضيوف ويندم
وليس يندم سرًا ... لكنه يتكلم

فمن أراد قراه ... والشتم فليتقدم
وليس يرضيه عرض ... ولا أديم مكلم
بل اللحوم تفرى ... بل العظام تحطم
وكيف ينجو مغير ... على فريسة ضيغم؟
إياك إياك إن زر ... ته تلم بمطعم
إن الحلال لديه ... على الضيوف محرم
فمن أباح حماه ... كان القصاص من الدم
يا رب شهد أكلنا ... ه عنده كان علقم
أضافنا فأكلنا ... فنحن نهجى ونشتم
ولم يكن من كريم ... لكنه يتكرم
سائل بذاك ابنه الحر ... ر فهو أدرى وأعلم
وإنما الغصن يسقى ... من عرقه فتفهم

فانظر إلى دقة ملاحظات ابن الرومي في وصف أحوال مهجوه، حتى لكأنما تعمقه وسبح في أعماق نفسه، فهو مهما قرى وتبسم إلا أنه يطوي كشحه على اللؤم، فهو بحق يقري الضيوف ولكنه يقري الضيوف ويندم، ثم انظر إلى ابن الرومي وكيف أصبح سوط عذاب على مهجوه هذا الذي هو فوق هذا لا يندم سرًا لكنه يتكلم!! إنه يقدم للأضياف واجبهم من القرى لكنه يكره منهم إعمال أيديهم في موائده وأضراسهم في طعامه: إن الحلال لديه على الضيوف محرم...وقمة تجسيد ذلك المعنى عند ابن الرومي تأتي في قوله: يا رب شهد أكلناه عنده كان علقم، وذلك لأننا عندما كنا نأكل كنا في الوقت ذاته نهجى ونشتم، وأخيرًا يرد ابن الرومي الأمر إلى علته الحقيقية بقوله: ولم يكن من كريم لكنه يتكرم، إنه الكرم المصطنع الذي لا يمكن أن يستقيم مهما تكلفه فاعله.

ويهجو البحتري أبا عبيدة الحلبي وكلابه التي نبحت البحتري وصحبه، وكيف أنهم فضلا عما لقوه من عناء السفر فقد لقوا سوء استقبال وبخلا على الأضياف تركهم في شر حال حيث يقول[٤٢]:

لا تجزين أبا عبيدة صالحا ... عن طول وقفتنا بقتسرينا

جزنا وما كان الجواز هوى لنا ... تعبين من نصب السرى لغبينا

حسرت من السفر البعيد ركابنا ... فشبعن من ألم الوجى وزوينا

وسرت كلابك بالشباح كأنما ... يطلبن ثارا قد تقدم فينا

متبعثات بالشباح وراءنا ... حتى طرحنا زادنا فرضينا

بتنا (بباشينا) من اجلك ليلة ... بلي المطي ببؤسها وبلينا

أطعمتنا الزقوم حين أبتنا ... في خانها وسقيتنا الغسلينا

لا أعلمنك تستزير عصابة ... من بعدنا شاميين أو جزرينا

قد كنت تهوى أن نزورك حقبة ... كلفا بنا فنهبت لما جبينا

فالبحتري يتهم صاحبه بالهرب فرارا من ضيافتهم.... حتى اضطروا إلى النزول في الخان...ويصف ما بلغه وصحبه من الجهد والجوع حتى لكأنه أطعمهم الزقوم وسقاهم الغسلين كناية عن سوء الحال، ثم ينصحه البحتري أخيرا ألا يتظاهر بالكرم المزعوم فيدعو أحدا من أصحابه إلى زيارته والقدوم عليه سواء أكانوا من أهل الشام أم من أهل الجزيرة، فهذا أمر لا يليق إلا بالكرام.

وفي مقطوعة أخرى له يهجو البحتري بعض بني حميد ببعض المثالب ويلح من ذلك على البخل والشح والتجهم للضيفان والعبوس في وجوههم...حيث يقول[٤٣]:

بني حميد تولى العز أولكم ... وصار آخركم للذل والهون

وفي أبي جعفر مرأى ومستمع ... ممن يسلسل في دار المجانين

جزل الرقاعة، فدم يدعي أدبا ... وليس يفرق بين التين والطين

جهم عبوس على ظهر الخوان له ... تفريق لحظ كأطراف السكاكين

يدنيك نائله من غير مزرية ... ويبلغه من وراء الهند والصين

وهو يزعم أن كبيرهم أبا جعفر هذا أبعد ما يكون عن جزالة الكرم، وإنما جزالته في الوقاحة والحمق والبلاهة، ومع ذلك فهو يدعي الأدب وهو لم يحقق الفصاحة فضلا عن الأدب؛ إذ لا يفرق في نطقه بين التاء والطاء في كلمتي التين والطين!، ثم إنه بعد ذلك يخصه بتجهم وعبوس لا نظير لهما في وجه الضيف لاسيما إذا قدم الخوان وحضر الطعام، فهو يضع بين يديك قراه لكنه يحميه منك بنظرات حداد لا تمتد معها يدك إليه، فهذا الطعام وإن كان بين يديك إلا أنه بعيد منك بعد الهند والصين!!.

ويسخر أبو تمام بصاحب له يقال له (يحيى) صادف أن زاره في وقت غداء فرأى منه مرأى عجيبا، يقول أبو تمام[٤٤]:

أتيت يحيى وقد كا ... ن لي صديقا وودا

فقلت ما بال هذا الـ ... ـفتى اشمأز وصدا؟

فارتد مني ارتداد ال ... أسير عاين قدا

فقال لي: ذو مزاح ... يصير الهزل جدا

كذا الكريم إذا ما ... أراد أن يتغددا

وما أبلغ صورته عندما ارتد عنه على قفاه موليا وما أروع تشبيه أبي تمام له بأسير قد عاين قدا وهي السيور المقددة من جلد البعير تغل بها الأسرى وتقيد، ثم أنظر إلى شدة حذر أبي تمام من خدش صاحبه رغم كل هذا، إذ يجرد في الموقف شخصا ثالثا ويصفه بأنه مزاح في عادته ليصدر الحكم القاسي على صاحبه وصنيعه هذا بسخرية جلية يحاول أبو تمام أن يسقطها على ذلك المزاح المجهول الذي اعتاد أن يصنع من الحبة قبة عندما قال: (كذا الكريم إذا ما أراد أن يتغدى)، وانظر إلى كلمة (الكريم) فإنها القمة في اللذع!.

وهجا ابن الرومي أحد معاصريه ويقال له (أبو أيوب) هجاءً ملأه عليه سخرية واستهزاءً حيث قال[٤٥]:

ما أنت في الأحياء بالحي الذي ... يطرى ولا بالميت المندوب

أبديت صفحة قسوة وخشونة ... من دون تافه نيلك المطلوب

فكأنك الينبوت في إبدائه ... شوكًا يذود به عن الخروب

لو كان نائلك المحجب نائلا ... لعذرت منعة بابك المحجوب

يا ضيفه أبشر فإنك غانم ... أجر الصيام وليس بالمكتوب

ولو استطاع لحبط أجرك حيلة ... لاحتال في ذاك احتيال أريب

وأراه ستاه بصومك علمه ... أن ليس صوم الكره بالمحسوب

أو ظنه أن لا صيام لضيفه ... مع رتعه في عرضه المسبوب

أبدًا تراه راكعًا في ثردة ... مأدومة بإهالة المصلوب

متتابع الأسقام من تخماته ... لا يشف ذاك الداء طب طبيب

ومصحح الأضياف يسلم ضيفه ... من كل داء غير داء الذيب[٤٦]

يتنفس الصعداء من كظاته ... لا فارقته زفرة المكروب

إن ابن الرومي لينقم على هذا الرجل أعظم نقمة، كيف لا وقد أوغر صدره وأوهن قدره وخيب شعره، ولقد افترعليه ابن الرومي هاجيًا محنقًا فذكره بأنه لا مع الأحياء ولا مع الأموات، لا يستحق إطراءً وثناء ولا يستحق تأبينًا ورثاءً، ثم يناجزه بما أبدى من صفاقة الوجه ورعونته ذيادًا عما قد يكون عدل عن الجود به من عطائه التافه، ثم يذهب الشاعر إلى تشبيهه في كل ذلك بذلك النبات المشؤوم في أشواكه وفي ثمره وهو الينبوت فأبو أيوب يذود عن عطائه التافه بوجه مشمئز قاس كما يذود الينبوت عن ثمره (الخروب) السيئ الطعم بشوكه الحاد، ويعقب بأنه لو كان ذلك العطاء الذي يذود عنه عطاءً حقيقيًا لربما عذره في الاحتجاب والشح، ثم يلتفت ابن الرومي محرضًا على مهجوه

مخاطبًا ضيفه أيا كان مبشرًا إياه بأجر صيام جزل، لكنه لا يكتب، لا بل إن مضيفك هذا لو استطاع إحباط سابق أجرك لفعل، بل ولو علم أن أجر صومك سيكتب لك لما أصامك حسدًا!، ثم إنه على كل ما كان من حسده وبخله فإنه لم ينس نفسه أبدًا، فهو شبع متخم أبدًا رغم جوع ضيفانه، لا يكاد يتنفس إلا الصعداء لتخمته واكتظاظه!!.

ويقول ابن الرومي[٤٧]:

لا تخش من لا يقتنيك الأسى ... ولا تخف من يقتنيك الحسد

يا أصدق الناس إذا ما أبى ... وأكذب الناس إذا ما وعد

يا من إذا عن له سائل ... ذاب وإن حاول بذلا جمد

يا من إذا جاء خوان له ... حف به خوف الغواشي رصد

فمهجوه هذا آية في بخله، فهو إذا ما أبى ورفض العطاء - وهو ديدنه - فإنه أصدق ما يكون في الثبات على موقفه، وهو إذا ما وعد بخير أو عطاء فهيهات أن يفي بوعده، فانظر كيف جمع عليه ابن الرومي صفتي الصدق والكذب وجعلهما معًا مذمتين متساويتين في القبح، ثم انظر كيف يتناقض هذا الإنسان حتى تغلب جبلة البخل عليه، فيحول البخل دون العطاء والجمود دون البذل، ثم إنه على ما هو عليه من كل ذلك الشح حتى عندما يقدم له الطعام في بيته، فخوانه محفوف بالرصد آمن من أيدي الضيوف والآكلين!!. ويقول ابن الرومي كذلك في ابن بشر المرثدي[٤٨]:

يا مظهرًا نخوة عند اللقاء لنا ... وكاسرًا طرفه من غير ما رمد

أما علمت بأني عنك في سعة ... وفي غنى من عطايا الواحد الصمد

فهبك أوتيت ما لم يؤته أحد ... من فضل جاه ومن مالٍ ومن ولد

ألست من لبسة الأحرار منسلخًا ... وكاسيًا من لبوس الشوم والنكد

لا خير في نعمة لا شكر يتبعها ... ولا يد عزيت من اصطناع يد

إن كنت أصبحت محسودًا على بخلٍ ... فذو السماحة أولى منك بالحسد

وشتان هنا بين ما يصفه به ابن الرومي من إظهار النخوة وانكسار الطرف عند استقباله، لكنه يطمئنه بأنه لا ينتظر منه عطاء ولا يرتقب فضلًا ولا نوالًا فهو عنه في غنى من الله وفضل، لكن ابن الرومي لا يدعه وشأنه وإنما يذهب إلى تقريعه بتقريره

فيما هو عليه من سوء، مفهما إياه بأنه رغم ما هو فيه من مال وجاه وولد إلا أنه عار من لبوس الأحرار كأس من لبوس اللئام.

ومن أروع ما نجد من الهجاء العام الساخر بالبخل ما جاء في دالية المتنبي الشهيرة في هجاء كافور الإخشيدي وأهل مصر التي أولها[٤٩]:

عيدٌ بأيةِ حالٍ عدتَ يا عيدُ ... بما مضى أم لأمرٍ فيكَ تجديدُ

والتي فيها قوله:

إنـي نزلـتُ بكـذابين ضـيفهمُ ... عن القرى وعن الترحـالِ محـدودُ

جودُ الرجالِ من الأيـدي وجـودهمُ ... من اللسانِ، فلا كانوا ولا الجودُ

ما يقبضُ الموتُ نفسًا من نفوسهمُ ... إلا وفي يـده مـن نتنهـا عـودُ

ولا شك أن السخرية الرائعة تتركز في البيت الأخير الذي أبدعت فيه ريشة المتنبي رسم تلك الصورة المضحكة التي اختزل فيها كل معاني السوء ممثلة بالنتن وذلك تتويجًا لحكاية البخل وانتفاء الجود التي أصلها فيهم أيما تأصيل.

ثانيًا: الهجاء بالتطفيل والشره والنهم:

وجد الهجاؤون في هجاء الطفيليين والنهمين والشرهين مادة جيدة للسخرية والتندر ونظموا في ذلك كثيرًا من المقطعات والأبيات التي كثيرًا ما أظهروا فيها التفاصيل الدقيقة لأحوال هؤلاء وصفاتهم وأساليبهم في الوصول إلى الموائد والاستئثار بها والتهامها... ومن أمثلة ذلك هذه الأبيات للحمدوني في هجاء رجل من معاصريه يقال له أبو زرارة حيث يقول[٥٠]:

رأيـت أبـا زرارة قـال يومًـا ... لحاجبـه وفي يـده الحـسام

لئن وضع الخوان ولاح شخص ... لأخـتطفن رأسـك يـا غـلام

فقال: سوى أبيك فذاك شيخ ... بغيض ليس يردعه الكلام

فقـام وقـال مـن حنـق إليـه ... ببيـت لم يـرد فيـه القيـام

أبي وابنا أبي والكلب عندي ... بمنزلـة إذا حـضر الطعـام

وقال له: ابن لي يا ابن كلب ... على خبزي أصادر أو أضام

إذا حضر الطعام فلا حقوق علي لوالدي ولا ذمام

فما في الأرض أقبح من خوان عليه الخبز يحضره الزحام

أما الشاعر العباسي (محمود بن الحسين) المعروف بكشاجم فهو يجمع في مهجوه في هذه الأبيات نعوتا عدة كثيرا ما تلازمت عند الآخرين، فمهجوه فضلا عن نهمه وشرهه وسعة بطنه هو كذلك ثقيل غث ممقوت غليظ جاف أحمق...، يقول كشاجم[٥١]:

منفدم الخلقة ممقوتها ذو صورة أثقل من رضوى[٥٢]

أصبح لا سخنا ولا باردا غثا فلا مرا ولا حلوا

مريع الجسم صفي الحشا لا يشبع الدهر ولا يروى

كأنما قدامه بطنه راوية قد نقصت دلوا

فهو مريع الجسم... وهو لذلك لا يمكن أن يشبع في يوم من الأيام من طعام أو يروى من شراب، وما أخبث كشاجم وصورته التي صوره عليها في بيته الأخير إذ شبه بطنه العظيمة أمامه وحركتها براوية عظيمة قد نقصت دلوا، ولكم أضفت هذه اللمسة الأخيرة الساخرة من ريشة كشاجم في عبارة (قد نقصت دلوا) من الطرافة على هذه الصورة، إذ إن الراوية هي المزادة العظيمة والقربة الضخمة التي تجمع فيها الدلاء الكثيرة من المياه.

ويهجو ابن الرومي أحد معاصريه بالمعنى ذاته، حيث يقول[٥٣]:

فتى لم يخلق الله يديه لسوى اللقم[٥٤]

فما يرتاح للمدح ولا يرتاع للشتم

فرت جلدته الألسـ ـن عن شحم وعن لحم

كأنا إذ سألناه وقفنا سائلي رسم

والحق أن الشره النهم الأكول كثيرا ما يكون فدما غليظا جافيا بليدا؛ لأنه كثيرا ما يكون بطينا سمينا ثقيلا، ولكن ابن الرومي جمع في مهجوه إلى ذلك الحمق والبخل، فالرسوم والأطلال لا تجيب سائليها ولا ترد عليهم وأنى لها ذلك؟.

وهذه مقطوعة لدعبل الخزاعي يسوقها في ممازحة ساخرة مع بعض صحبه حيث

حدث أحمد بن خالد فقال: «كنا يوما بدار صالح بن علي من عبد القيس ببغداد ومعنا جماعة من أصحابنا فسقط على كنينة[55] في سطحه ديك طار من دار دعبل، فلما رأيناه قلنا هذا صيدنا، فأخذناه، فقال صالح: ما نصنع؟ قلنا: نذبحه، فذبحناه وشويناه، وخرج دعبل فصلى الغداة ثم جلس على المسجد، وكان ذلك المسجد مجمع الناس يجتمع فيه جماعة من العلماء وينتابهم الناس، فجلس دعبل على المسجد وقال:

أسر المؤذن صالح وضيوفه ... أسر الكمي هفا خلال المأقط

بعثوا عليه بنيهم وبناتهم ... من بين ناتفة وآخر سامط

يتنازعون كأنهم قد أوثقوا ... خاقان أو هزموا كتائب ناعط[56]

نهشوه فانتزعت له أسنانهم ... وتهشمت أقفاؤهم بالحائط»[57]

فدعبل في مقطوعته هذه ينعي عليهم شرههم وانتهابهم لهذا الديك فيما بينهم وإعمالهم أسنانهم فيه بمجاذبة وعنف!.

ويهجو ابن الرومي رجلين من معاصريه، يقال للأول شنيف، وللثاني زيرك فيقول[58]:

إلهي أجرني من شنيف وزيرك ... من الجزذ القراض والهرذي الخدش

إلى أن يقول مفردا منهما شنيفا البصري:

وأما يد البصري في كل صحفة ... فأقلع من ميل وأغرف من رفش

يبادر في قلع الطعام كأنه ... وكيل يتيم أو مريب على نبش

ألم أره لو شاء بلع تهامة ... وأجبالها طاحت هناك بلا أرش

أعذني من تلك البلاعيم إنها ... دهنشار والدردور يا صاحب العرش[59]

يغير على مال الوزير وآله ... فينفش في زغفانهم أينما نفش

على أنه ينعى إلى كل صاحب ... ضروسا له تأتي على الثور والكبش

يخبر عنها أن فيها تئلما ... وذلكم أدهى وأوكد للجرش

ألم تعلموا أن الزحا عند نقرها ... وتجريشها تأتي على الصئلب والهش

فلا تقبلوا ذاك التفارق واحذروا ... شباه ولو أمسى مسجى على نعش

هو الطاحن الأزواد في كل حالة ... من الدهر والوثاب عنها إلى الحش

فدع ذكره لا قدس الله ذكره ... وما أنت من ذكر الحمولة والفرش

فيه في الصحفة أقلع للطعام من الميل والرفش!!، وهو في مسارعته إلى انتهاب الطعام كأنما هو وكيل يتيم يخشى نفاد الطعام دونه، أو كأنما هو مريب خائف ينبش شيئا قد دفنه من قبل وخباه فهو ينبش بسرعة ويتلفت يمنة ويسره، ثم هذه الصورة الخرافية لمهجوه الذي لو شاء بلع تهامة وجبالها لابتلعها دون أن يدفع العوض، وأما حديثه عن أضراسه وتشبيهها بالزحى لا تجرش تمامًا إلا إذا نقرت فصورة عجيبة ساخرة وتوجيه مذهل لما زعمه البصري من تثلم أضراسه!!.

ويلقانا البحتري بقصيدة يمدح بها المعتز ولكنه يهجو المستعين مشهرًا بنهمه وشرهه وتكالبه على الطعام... حيث يقول[٦٠]:

بكى المنبر الشرقي إذ خار فوقه ... على الناس ثور قد تدلت غباغبه

ثقيل على جنب الثريد مراقب ... لشخص الخوان يبتدي فيواثبه

إذا ما احتشى من حاضر الزاد لم ينبل ... أضاء شهاب الملك أم كل ثاقبه!

ويهجو ابن الرومي أحد معاصريه بالتطفيل والشره، حيث يقول في إحدى أراجيزه[٦١]:

أصلع يكنى بأبي الجَلَخت[٦٢]

وفارس الأحرار بالبَذَنْخت[٦٣]

من آكل الناس لخبز بخت

يلتقه بالريق أي لقت

يلقـــــط حـــــب الأدم المنفـــــت

لقـــط حمـــام جـــاء مـــن جيرفـــت[٦٣]

كأنمـــــا يلقطـــــه بـــــشقت[٦٤]

مذبـــذب بـــين الجهـــات الـــست

ابـــن كبنـــت وأع كأخـــت!

والسخرية في أبياته هذه تبلغ ذروتها عند تصويره وهو يلتقط الفتات المتناثر على سفرة الأدم حتى إنه في سرعة لقطه وعدم مغادرته لشيء من ذلك الفتات مهما دق يشبه الحمام!!.

وفي قصيدة اخرى يهجو أبو نواس رجلا يقال له (حمدان) كان صاحبا له وكان عنده أقرب إلى صف العلماء حتى أخذه البخل والتطفيل وتتبع الموائد، يقول أبو نواس[٦٦]:

قد كان لي حمدان ذا زورة ... يأخـــذه الـــشوق بـــإقلاقِ

فقلـــت إذ أوحـــشني فقـــده ... وكنـــت ذا رعـــي لميثـــاقِ

أمـــا تـــراه وهـــو في قرطـــقٍ ... مـــشمرًا فيـــه عـــن الـــساقِ

أبعـــد ســـربال امـــرئ عـــالم ... أصـــبحت في ســـربال مُـــزاقِ

وبعد غدوٍ لاكتساب العلا ... تغـــدو علـــى ريـــد وخـــزاقِ[٦٧]

حاسر كفيك علـــى هـــاونٍ ... لـــدق ثـــوم أو لشمـــاقِ

إذا انتهى القـــوم إلى شـــبعهم ... فأنـــت في حـــلٍ مـــن البـــاقي

كـــل رغيـــف ناصـــع لونـــه ... مـــن ســـابري الخبـــز بـــزاقِ

ويهجو ابن الرومي أبا بكر الرقي بشرهه الشديد وحرصه المفرط على الطعام، حيث يقول[٦٨]:

لأبي بكر كلام ... واحد لا يتعدى

ضرب الله عليه ... دون لفظ الخلق حدا

ثم من أحلف خلق الـ ... ـله أن لا يتغدى

وألج الناس ما دا ... م يحمسى ويفدى

فإذا أعرضت عنه ... جاء نحو الزاد شدا

كصبي السوء يلقى ... منه من قاساه جهدا

فهو كما يراه ابن الرومي يتنبل ويظهر التعفف والتكرم طالما أن القوم يدعونه إلى الطعام ويلحون عليه... حتى يرتفع صوته ويبلغ الإلحاح مرحلة أقرب إلى المشادة معه، وما إن يقصر عنه الملحون ويعذرون في دعوته ويتركونه وشأنه حتى تنقلب حاله، فإذا به يسابق القوم إلى المائدة ويزاحمهم عليها، قد غلبه الشره وعزه حب الطعام، وما هو في هذا كله إلا كصبي لا تتنبأ بما يفعل يتأبى ويتمنع تارة، ويطلب الشيء ويلح فيه حتى البكاء تارة أخرى!!.

وينعت أبو نواس الرقاشيين بالتطفيل والشره فيقول[٦٩]:

أمات الله من جوع رقاشا ... فلولا الجوع ما ماتت رقاش

ولو أشممت موتاهم رغيفا ... وقد سكنوا القبور إذا لعاشوا!!

فهو في البيت الأول يحدد لهم ذلك الحد الذي سيتجلى معه شرههم وتطفيلهم وهو حد الموت الذي لا يؤوب إلى الدنيا من تخطاه... ليركز هذه المعجزة الطفيلية الرقاشية التي تتحقق بمجرد أن تقرب من هؤلاء رغيفا، فالأمر لا يحتاج أكثر من إشمامهم رائحة الرغيف ليقوموا من أجداثهم مسرعين إليه!!

ومثل هذا التطفيل المتعلق بروائح الطعام يذكرني بأبيات جرير الساخرة في هجاء آل الهُجيم حيث يقول[٧٠]:

إن الهجيم قبيلة ملعونة ... خصُ اللحى متشابهو الألوانِ

لو يسمعون بأكلة أو شربة ... بعمان أمسى جمعهم بعمانِ

متوركين بنيهم وبناتهم ... صعر الأنوف لريح كل دخان!

ثالثا: هجاء الأرغفة والبخلاء بها:

مثل الهجاء بالبخل عنصرًا من أهم عناصر الهجاء في الشعر العربي على الإطلاق، وعلى القدر ذاته من الأهمية جاء البخل في سياق الهجاء الساخر في العصر العباسي حتى تفنن الهجاؤون في تصوير هذا البخل وتحليله وتعليله وبيان مقاديره وأحوال أصحابه، هذا دعبل بن علي الخزاعي يهجو أحد بخلاء عصره وشدة حرصه على رغيفه وصيانته حتى إنه لا أمل فيه لناظر ولا للامس فضلا عن آكل، ويصور ذلك الحرص تصويرًا غاية في السخرية والإمتاع والإضحاك حيث يقول[٧١]:

إن هذا الفتى يصون رغيفا ... ما إليه لناظر من سبيلِ

هو في سفرتين من أدم الطا ... ئف في سلتين في منديلِ

ختمت كل سلة بحديد ... وسيور قددن من جلد فيلِ

في جرابٍ في جوف تابوت موسى ... والمفاتيح عند إسرافيل

فاعجب كيف ركز دعبل خصلة البخل هذه بأسرها في هذا الرغيف، ثم كيف جسد صفة هذا البخل بعناصره المختلفة، من بخل وياخل ومبخول به، وعناصر مساعده من سفر أدم وسلال ومناديل وأختام حديدية وسيور قدت من جلود الأفيال وجُرب وتوابيت ومفاتيح، حتى اختلط الواقعي بالأسطوري، أو لنقل بالمدرك بالعلم والخبر دون المعاينة والمشاهدة، من تابوت موسى كليم الله عليه السلام، إلى مفاتيح إسرافيل صاحب الصور من الملائكة عليهم السلام، ليولد هذا اللون التعبيري في النهاية مقطوعة نادرة المثال من مقطوعات الهجاء الساخر التي ركبها ناظموها على مسألة البخل بالأرغفة تحديدًا.

ونحن إذا ما ذهبنا إلى أبيات هذه المقطوعة واستعرضنا كلا منها على حده فإنه

يتبين لنا مقدار حذق دعبل في تصوير درجة هذا البخل.

فهو في البيت الأول يستعمل كلمة (يصون) وهي كلمة تختزل أفقا واسعا للبخل، إذ إنها صيانة من نوع آخر لا كالصيانة المعهودة، فهي صيانة لما قد أعد للإتلاف أصلا، وأي صيانة هذه، إنها صيانة لا تتسع حتى لمجرد النظر إلى هذا الرغيف أو حتى لمحه على عجل!!.

ثم هو في البيت الثاني يذهب إلى تفاصيل إجراءات الصيانة التي اتخذها ذلك البخيل لهذا الرغيف، فقد لفه بإحكام لا في سفرة واحدة بل في سفرتين من أدم الطائف، وهو نوع قوي من الجلد تعرف به الطائف وتتخذ منه سفر الطعام، ثم إنه فوق ذلك قد لف الرغيف وسفرتيه الجلديتين في منديل، ثم أودع كل هذه اللفائف لا في سلة واحدة، بل في سلال مضاعفة، فهي سلة وسط سلة أخرى!!.

ثم إنه في البيت الثالث يمضي في تصعيد المعنى، أعني معنى البخل الذي يستهدفه من خلال تصعيد التصوير لإجراءات السلامة التي يتخذها هذا البخيل لرغيفه، فالأمر لم ينته بوضع هذه اللفائف جوف سلة، ثم وضع هذه السلة بما فيها جوف سلة أخرى، بل تعدى ذلك إلى استخدام الأختام الحديدية وضربها على هذه السلال!، ولم ينته الأمر عند ذلك أيضا، بل إن إجراءات هذا البخيل لصيانة رغيفه وسلامته من أيدي المعتدين قد أدت إلى المزيد من الاحتياطات، فقد أحاط هذه السلال بما فيها بسيور الجلد القوية التي لا سبيل ليد إلى افتضاضها، ويا لها من سيور، ويا له من جلد، إنها ليست مما عهده العرب من أقوى أنواع الجلود ككجلود الإبل مثلا، لا بل إنها من جلود الأفيال، إنها بحق صورة غير معتادة، لا تملك معها إلا الضحك!!.

ويبلغ هذا التصعيد الساخر عند دعبل لبخل هذا البخيل برغيفه منتهاه في البيت الأخير من المقطوعة عندما تتخذ إجراءات البخل طابعا أسطوريا، حيث يستحضر دعبل قصة موسى عليه السلام عندما قذفته أمه بوحي من الله في التابوت، ثم قذفته في اليم، ليلقيه اليم بالساحل: (إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى. أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل...) (طه: ٣٨- ٣٩)، فقد وضع هذه السلال المختمة بالحديد الملففة بجلود الأفيال في جراب محكم، ثم قذف هذا الجراب في جوف تابوت محكم الإقفال لا ينفذ إليه حتى الماء، ثم قذفه في لجة بحر لا يعلم بها إلا الله، ثم إنه بعد كل هذا قد أودع مفاتيح هذا التابوت عند الملك الموكل بنفخة الصور وهو إسرافيل عليه السلام في أعالي السماوات!!.

إنه تصوير غاية في السخرية من بخل هذا البخيل برغيفه، تصوير لا أعرف نظيرا له

على الإطلاق.

وفي مقطوعة أخرى في بخل عيسى - الذي كأنما أصبح بطلا من أبطال هجائيات ابن الرومي - يفصل ابن الرومي أقواله في بخل عيسى تفصيلا دقيقا يرصد من خلاله نظرات عيسى إلى من قضى عليه سوء الطالع بمواكلته، حيث يقول[٧٢]:

أكلت رغيفا عند عيسى فملني ... وكان كهمّي من محبّ مقرّب

رآني قليل الخوف من لحظاته ... وذلك من شأني له غير معجب

يريد أكيلا زرؤه من طعامه ... كزرء كتاب من تراب مترّب

إذا لحظته عينه عند مضغه ... طوى الأنس طيّ الخائف المترقب

يحبّ الخميص البطن من أكلائه ... ويضحي ويمسي بطنه بطن مقرب

وما أنس ذي أنس لعيسى بمؤنس ... ولا وقع أضراس الأكيل بمطرب

تزوّد إذا أكلته فهي أكلة ... وما أختها إلا كعنقاء مغرب

إن عيسى لبخله ليشمئز من أكيله إذا كان أكولا، حتى إنه يسارقه لحظاته الحاقدة، لا بل إنه يحب من أكيله أن يكون قنوعا زاهدا فلا ينقص من طعامه إلا كما ينقص الكتاب إذا وقع على الأرض من التراب، أي شيئا من الغبار الذي يطير بمجرد نفخه، وإن عيسى ليلاحظ أكيله لحظات حادة كفيلة بأن تغص الأكيل وتذهب أنسه وتبدله خوفا كخوف المترقب، إنه يحمد في أكيله أن يكون خميص البطن ضامره، على أنه يقبل صباح مساء ببطن عظيم كبطن ناقة قرب نتاجها أو حامل أزف ولادها، ولا شيء يقرع سمع عيسى ويسوؤه كمثل صوت الأضراس والأسنان ووقعها على الطعام، وأخيرا يسدي ابن الرومي نصيحة إلى من تبلغه هذه الرسالة من مواكليه بأن أكله على مائدته لن يتكرر، فعليه والحال هذه أن يعب ما يمكنه من طعامه وألا يعبأ بنظراته وحسراته وزفراته، إنها أكلة واحدة على مائدته لا أمل في أخت لها، فهي مستحيلة استحالة العنقاء.

وهجا ابن الرومي أحد معاصريه مصورا بخله بخبزه وأرغفته وسائر عطائه فقال[٧٣]:

فتى على خبزه ونائله ... أشفق من والد على ولده

رغيفه منه حين يسأله مكان روح الجبان من جسده

إنه تصوير بارع بحق يرتقي بخبزه ورغيفه إلى منزلة الولد عند الوالد إشفاقا عليه وظنا به، وإلى منزلة الروح عند الجبان يفز بها من مكان الخوف فرارا.

وهذا دعبل بن علي الخزاعي يهجو أحد بخلاء عصره بسخرية فيقول[٧٤]:

وإن لـه لطباخـا وخبـزا وأنـواع الفواكـه والـشراب

ولكن دونه حبس وضرب وأبـواب تطـابق دون بـاب

يذودون الذباب يمـر عنـه كأمثال الملائكة الغضاب

إنه بخيل من نوع آخر، فهو لا يبخل عن نفسه وإنما يتمتع بملاذ الطعام والشراب، لكن طعامه وشرابه أبعد ما يكونان عن أيدي الأضياف والطارئين، لا بل إنها ليست الأبواب المغلقة التي دونها أبواب فحسب، بل إن دونها عقابيل من الحبس والضراب والسباب، إنه لا أمل لمخلوق في الوصول إلى مائدة هذا البخيل، وإن أهل بيته ليقفون بالمرصاد من دونها حتى دون الذباب فلا يمر من حولها.

ومن روائع الهجاء الساخر عند الشعراء العباسيين تلك المقطوعة لأبي نواس في رغيف أحد معاصريه الذي يقال له سعيد، وقد نجح أبو نواس نجاحا كبيرا في تصوير بخل سعيد تصويرا ساخرا غاية في الإمتاع حيث يقول[٧٥]:

رغيف سعيد عنده عدل نفسه يقلبه طورا وطورا يلاعبه

ويخرجه من كمه فيشمه ويجلسه في حجره ويخاطبه

وإن جاءه المسكين يطلب فضله فقد ثكلته أمه وأقاربه

يكز عليه السوط من كل جانب وتكسر رجلاه، ويتتف شاربه

رغيف يساوي نفس صاحبه الشحيح، لا يمل تقليبه وملاعبته ومخاطبته وشمه، مشاهد غاية في تصوير شح هذا الشحيح وغاية الغاية مشهد ذلك المسكين المتسول بين ضرب السياط ونتف الشارب وكسر الأرجل!!.

ونحوه قوله في خبز الخصيب[٧٦]:

خبز الخصيب معلق بالكوكب يخمى بكل مثقف ومشطب

جعل الطعام على السغاب محرما قوتا وحلله لمن لم يسغب

فإذا هم رأوا الرغيف تطرزوا ضرب الصيام إلى أذان المغرب

فما أروع صورة خبز معلق بالكوكب، وما أروع صورة خبز قد أشرعت دونه الرماح الفوارع وسلت السيوف القواطع، وما أروع مشهد أولئك السغاب الذين شخصت أبصارهم طربًا وشوقا إلى هذا الخبز البعيد، وما أروع تشبيه أبي نواس لهم بحال الصائمين الذين يتطلعون إلى الأفق ويعدون اللحظات تشوقا إلى أذان المغرب حيث اللقاء بالحبيب، ولكن هيهات لا أمل في اللقاء مع هذا الحبيب!!

ومن روائع الهجاء الساخر حقا قول أبي نواس أيضا[٧٧]:

رأيت الفضل مكتئبا ... يناغي الخبز والسمكا

فقطب حين أبصرني ... ونكس رأسه وبكى

فلما أن حلفت له ... بأني صائم ضحكا

وتكمن الروعة والسخرية في تقطيب الفضل وتنكيس رأسه وإجهاشه بالبكاء، تلك الصورة التي سرعان ما جاورتها نقيضتها بمجرد أن استوثق من صيام أبي نواس باليمين فأيقن أن الموقعة الفاصلة والدهياء النازلة ستكون على يديه وحده في ساحة هذا الخبز والسمك لا شريك له فيهما، فانبسطت أساريره بعد التقطيب وعاوده الأمن بعد التشريب والضحك بعد البكاء!!.

وهذا ابن الرومي يقول في يعقوب البريدي ورغفانه[٧٨]:

أصبح يعقوب وتبجيله ... للخبز مرئي ومسموع

رغيفه في قدر ديناره ... بتلكم السكة مطبوع

بل آية الكرسي مكتوبة ... فهو طوال الدهر ممنوع

لا يشتكي ضيف له كظة ... لكنه يقتله الجوع

لقد اشتهر أمر يعقوب هذا في تبجيله للخبز وتعظيمه حتى عرفه القاصي والداني، لكن رغيف يعقوب هذا غاية في الغرابة والتفرد، لا ند له ولا نظير فهو في حجم دائرة الدينار بل إنه قد ضربه على نفس سكة الدينار وقالبه، ثم إنه قد اتخذ له أسباب السلامة حتى حززه من الأكلة والنهمين والسفليين بآية الكرسي نقشها عليه، فهو في أمن وسلامة إلى الأبد، وأخيرا فإن أضياف يعقوب قد أمنوا شر التخمة والكظة على أنفسهم، لكنهم لم يأمنوا شر الجوع فهو لا يزال يعمل فيهم قتلا!!.

أما دعبل بن علي الخزاعي فيحدثنا عن بخيل يقدس الرغيف تقديسا حتى يقسم به... حيث يقول[٧٩]:

صدق أليته إن قال مجتهدا ... لا والرغيف فذاك البز من قسمه

وإن هممت به فافتك بخبزته ... فإن موقعها من لحمه ودمه

قد كان يعجبني لو أن غيرته ... على جرادقه كانت على حرمه

إنه إن بز في يمين فلن يكون أبز في قسمه من ذلك اليمين، وإن خطر رغيفه ومنزلته عنده لا تعدلها منزلة، فإن أردت أن تقتله هما وتبيره غما فافتك برغيفه، فإنما وقع أسنانك في رغيفه بمنزلة وقعها في لحمه ودمه، والأنكى أن يجمع إلى هجانه بالبخل هجاءه بتضييع المحارم، فليت غيرته هذه على خبزه ورغفانه كانت غيرة على محارمه وأعراضه.

وفي مقطوعة أخرى له يهجو الخزاعي رجلا يقال له أبو المقاتل، ويرشد الأضياف الذين قد يسوقهم القدر يوما إلى داره يرشدهم إلى أفضل طريقة لمداراته وعدم إسخاطه.. حيث يقول[٨٠]:

استبق ودّ أبي المقا ... تل حين تأكل من طعامه

الموت أيسر عنده ... من مضغ ضيف والتقامه

وتراه من خوف النزيـ ... ـل به، يروع في منامه

سيان: كسر رغيفه ... أو كسر عظم من عظامه

لا تكسرن رغيفه ... إن كنت ترغب في كلامه

وإذا مررت ببابه ... فاحفظ رغيفك من غلامه

إنه إن ابتلي بضيف لا مناص له منه فإنه يموت بضيفه هذا وهو حي إذا ما كان الضيف أكولا شديد المضغ والالتقام للطعام، ولقد كانت الأحلام والكوابيس تغاديه وتراوحه خوفا من مثل ذلك اليوم، أما إذا بلغ الضيف من الجريرة حد كسر الرغيف وتهشيمه فقد بلغ من سخط أبي المقاتل منتهاه الذي يتجلى على هيئة بكم وإضراب عن الكلام من مضيف تغلي مراجله وتتحطم عظامه، وهو فوق هذا كله قد ترك غلامه

فريسة للجوع فليحاذر من مر ببابه فإن غلامه المسكين مضطر إلى السطو على ما تقع عليه عينه من الرغفان والأزواد مع المارة!!.

وهذا ابن الرومي يهجو ابن فراس بالبخل هجاءً ساخرًا يديره حول الرغيف حيث يقول[٨١]:

نظرت إلى الرغيف فرد روحي ... لدى حجر يرض ولا يرض

فتى ما زال ينهض للمخازي ... وليس له إلى العلياء نهض

سجينته طوال الدهر قبض ... وكل سجينة بسط وقبض

أراني عنده يومًا رغيفًا ... يقاتل عنه جيش لا ينفض

فقبلت الرغيف وقلت خيرًا ... وشكر المحسن المأمول فرض

فلما أن فغرت فمي عليه ... لأكدمه وفي الأحشاء مض

إذا رجل يقول وليس يكنى ... ألا ترضى تقبل أو تعض

فقلت وما سبيل الخبز فيكم ... فقال سبيله بيع وقرض

ولست أقول من هو فاعرفوه ... وهل في الأرض غير الأرض أرض

أريناه الطبيب فجس منه ... فأقسم ما لجود فيه نبض

هجاء غاية في السخرية يستهله بوصف ابن فراس بأنه حجر صلد لا ينال منه، سجيته واحدة وهي القبض الدائم ومن عادة السجايا المراوحة بين البسط والقبض، ثم صور رغيفه من المنعة وكأنه في حمى جيش لا يمكن التغلب، عليه فلا يمكن الوصول إليه، ثم إنه لو وصل الواصل إليه بمسه وتقليبه فهيهات أن يصل إليه بأكله، ثم ما أروع صورته وقد فغر فاه للشروع في التهامه فإذا برجل يعترض طريقه قائلا له بصريح العبارة لا مومئا ولا مكنيا: ألا ترضى تقبل أو تعض، فإذا بابن الرومي يقفل فاه المفغور ويبعد الرغيف عنه، ثم يقبل على الرجل وهو ابن فراس بالطبع سائلا إياه: ما سبيل الخبز فيكم، الذي يمكن أن نصل من خلاله إليه؟، فإذا به يبادره بالإجابة: فقال سبيله بيع وقرض، ويحاول ابن الرومي أن يلغز خبثا باسم الرجل، لكنه يوضح بأنه ليس هناك غيره

لأنه علم زمانه في البخل، فإن ذكر بخيل على هذا النحو فهو واحد عصره وهل في الأرض غير الأرض أرض؟! وتبلغ روعة السخرية منتهاها عنده في بيته الأخير الذي أراد أن يجعله ختمًا يختم به وشهادة وفاة يصدرها الطبيب على ابن فراس وما قد يتوهم البعض لديه من ذرات الكرم حيث قال:

أريناه الطبيب فجس منه ... فأقسم ما لجود فيه نبض

ومن رائع الهجاء الساخر الذي دار حول الرغفان قول أبي نواس في خبز المفضل[٨٢]:

أصبحت أجوع خلق الله كلهم ... وأفزع الناس من خبز إذا وضعا

خبز المفضل مكتوب عليه: ألا ... لا بارك الله في ضيف إذا شبعا

إني أحذركم من خبز صاحبنا ... فقد ترون بحلقي اليوم ما صنعا

فهو إما يقصد أن المفضل قد أخذ بخناقه لما أكل من هذا الخبز فظهر فيه أثر ذلك الخنق، أو أنه يقصد الخبز ذاته وأنه لشدة يبسه وحدته كاد أن يشقق حلقه وأنه أورثه بحة بينة في كلامه.

ويقول في موضع آخر ولعله يعني المفضل ورغيفه[٨٣]:

فتىً لرغيفه قرط وشنف ... وخلخالان من خرز وشذر

إذا فقد الرغيف بكى عليه ... بكا الخنساء إذ فجعت بصخر

ودون رغيفه قلع الثنايا ... وحرب مثل وقعة يوم بدر

فيا له من رغيف مدلل قد ألبس الحلي بأصنافها، ويا له من فتىً بخيل قد ألف رغيفه فهو لا يطيق أذاه ولا فراقه، ولو حدث الفراق فإنه سينفجع ويتوجع ويبكي عليه أكثر مما بكت الخنساء على أخيها صخر...ولهذا كله، وحذارًا من هذا كله فويل للضيف من صاحب الرغيف إن هم برغيفه، فدون ذلك قلع الثنايا وحرب ضروس تهون عندها وقعة يوم بدر.

وهجا أبو نواس المعبديين حتى جعل رغفانهم تتكلم حيث يقول[٨٤]:

وجدت لكل الناس في الجود خطة ... ولو كان سقي الماء في منتهى القز

سوى المعبديين الذين قدورهم تحرز فيها العنكبوت من الحر

هم أحرزوا الرغفان حتى تكلمت أمنا بحول الله من حذر الكسر

وقال علي بن بسام في هجاء أبي جعفر[٨٥]:

دار أبي جعفر مفروشة ما شئت من بسط وأنماط

وبعد ما بينك من خبزه كبعد بلخ من سميساط

إذ لا أمل لك ولا لأي ضيف في الوصول إلى خبزه!!.

وعلى نحو من ذلك قول أبي الشمقمق يهجو رجلا استضافهم في داره[٨٦]:

رأيت الخبز عز لديك حتى حسبت الخبز في جو السحاب

وما روحتنا لتذبا عنا ولكن خفت مرزئة الذباب

وقد أقام أبو نواس زفة ساخرة لإسماعيل بن نوبخت وبخله دوت في الآفاق، وقد أدارها على خبزه، حيث أصبح خبز إسماعيل هذا أشهر خبز عند أهل العصر، حيث يقول[٨٧]:

على خبز إسماعيل واقية البخل فقد حل في دار الأمان من الأكل

وما خبزه إلا كأوى يرى ابنه ولم يرز أوى في خزون ولا سهل

وما خبزه إلا كمتقاء مثقب تصور في بسط الملوك وفي المثل

يحدث عنها الناس من غير رؤية سوى صورة ما إن تمز ولا تحلي

وما خبزه إلا كليب بن وائل ومن كان يحمي عرضه منبت البقل

وإذ هو لا يستنبأ خصمان عنده ولا الصوت مرفوع بحد ولا هزل

فإن خبز إسماعيل حل به الذي أصاب كليبا لم يكن ذاك من ذل

ولكن قضاء ليس يستطاع رده بحيلة ذي مكر ولا فكر ذي عقل

إنه هجاء بالبخل غاية في السخرية، فهذا الخبز عند إسماعيل إنما هو في دار أمن

وسلام، خبز ينسمع به ولا يرى، وما أروع تشبيهه في ذلك بأوى والد ابن آوى الحيوان المعروف الشبيه بالثعلب، فالكل قد رأى هذا الحيوان ولكن لم ير أحد قط ولم يعرف أباه آوى، لا بل إنه يشبه خبز ابن نوبخت هذا بالعنقاء التي يضرب بها المثل في البعد والاستحالة ولم يعرفها الناس إلا في الأمثال وفي بعض تصاوير البسط التي تزين قصور الملوك، لا بل إنه يشبه هذا الخبز في ظل حماية ابن نوبخت وبخله بكليب بن وائل وما كان يفرض من حمايته على المراعي حتى لا يجرؤ أحد من العرب على الرعي فيها، غير أن كليبا قتل في النهاية وهلك، (فإن خبز إسماعيل حل به الذي أصاب كليبا) من الهلاك فإن ذلك لم يكن من ذل وتقاعس من إسماعيل في الدفاع عن خبزه ولكنه قضاء الله وقدره الذي لا يمكن دفعه.

وفي جولة أخرى لأبي نواس مع إسماعيل وخبزه أيضا يقول أبو نواس[٨٨]:

خبز إسماعيل كالوشـ ـي إذا ما انشق يرفا

عجبا من أثر الصنـ ـعة فيه كيف يخفى؟!

إن رفاءك هذا أحذق الأمة كفا

وإذا قابل بالتعـ ـين فمن الجرد نصفا

يلصق النصف بنصف فإذا قد صار ألفا

ألطف الصنعة حتى لا ترى مقرز إشفى

مثلما جاء من التنـ ـور ما غادر حرفا

وله في الماء أيضا عمل أبدع ظرفا

مرجة العذب بماء الـ ـبئر كي يزداد ضعفا

فهو لا يسقيك متـ ـه مثلما يشرب صرفا

إنه يسخر بخبث من إسماعيل وخبزه وخبازه، فخبزه غاية في الرقة والشفافية حتى إنه لينشق انشقاق الرقيق من الشفوف، غير أن الصنعة تظهر على الوشي والشفوف ولا تظهر على خبز إسماعيل، فيا لهذا الخباز الرفاء الحاذق.

وفي معرض حملة أبي نواس على الرقاشيين والتشنيع عليهم بالبخل فإنه قد وجد عليهم في الأرغفة مدخلا واسعا، حيث قال[٨٩]:

أمـــات اللهُ مـــن جـــوع رقاشـــا فلـــولا الجـــوع مـــا ماتـــت رقـــاش

ولـــو أشمَمْـــت موتـــاهم رغيفـــا وقـــد ســـكنوا القبـــور إذا لعاشـــوا!

فرائحة الرغيف كفيلة بإنشار الرقاشيين وبعثهم من قبورهم!!

هكذا رأينا كيف أن الخبز والأرغفة شكلت محورا من محاور الهجاء الساخر الذي نظمه شعراء العصر العباسي في هجاء البخلاء، متخذين من روح الفكاهة والإضحاك سوطا يلهبون به جلود البخلاء.

وهجا أحدهم أبا دلف بشحه برغفانه، حتى إنه لشدة ذلك لا يتورع عن استخدام السيف في سبيل الدفاع عنها، فهو يجازي عليها إن امتدت إليها يد آكل بالضرب بالسيف، الأمر عنده جد لا هزل فيه حيث يقول[٩٠]:

أبو دلف يضيّع ألف ألف ويضرب بالحسام على الرغيف

أبـو دلـف لمطبخـه قتـال ولكـن دونـه سـل السـيوف

رابعا: هجاء المطابخ والقدور والغوانات والسلال:

من خلال استقرائنا لنماذج الهجاء الساخر في العصر العباسي تبين لنا أن الهجاء بالبخل كان من أهم ميادين الهجاء التي صال فيها الهجاؤون وجالوا إن لم يكن أهمها على الإطلاق، ثم لاحظنا أن الهجائيات المتعلقة بالأطعمة والأشربة كانت من أبرز الهجائيات التي صُبّت على البخلاء، ثم إنه اتضح لنا أن الهجاء بمتعلقات الأطعمة من قدور ومطابخ وخوانات وسلال ونحوها شكل قسما مهما من هذه الهجائيات، وقد دأب الشعراء على توخي السخرية والتصوير اللاذع الذي كثيرا ما جنح إلى الرسوم المضحكة حقا نكاية في مهجويهم، ومما يطالعنا من ذلك هذا المقطع الذي يهجو فيه أبو نواس الرقاشيين من خلال تصوير قدرهم الذي يرمي من خلاله إلى تصوير كرمهم مستخدما لغة التلوين والتقزيم حيث يقول[٩١]:

رأيت قدور الناس سودا من الصلى وقدر الرقاشيين زهراء كالبدر

تبـين في مخراشـها أن عودهـا سليم صحيح لم يصبه أذى الجمر

يبيتهـا للمعتفـي بفنـائهم ثلاثا كنقط الثاء من نقط الحبر

ولـو جئتهـا ملأى عبيطا مجزلا لأخرجت ما فيها على طرف الظفر

تـروح علـى حـي الربـاب ودارم وعمـرو وتعروهـا قراضبة النمـر

وللحي قيس نفحة من سجالها وقحطان والغر الطوال بني بكـر

إذا ما تنـادوا للرحيـل سعى بها أمـامهم الحـوالئ من ولـد الـذر

فأبو نواس يريد تعرية الرقاشيين من الكرم وتنقيتهم منه نقاءً كنقاء قدرهم الزهراء من الدنس والسواد، إذ إنه لا عهد لها بالنار ولا بالدخان، لا بل إن محراث نارها الذي يلازمها صحيح ليس فيه أي أثر للنار، ثم يتجه نحو أسلوب التقزيم لهذه القدور، فهي إذا ما ملأت عن آخرها لحمًا فإنك تستطيع أن تخرج كل ما فيها منها على طرف ظفرك فقط!!

وبعد هذا التقزيم المتنامي يعمد إلى خلق المفارقة الفجة بين هذه القدر وشأنها في أحياء العرب، فهي تشبع الرباب ودارمًا وعمروًا من تميم، لا بل وتنهل منها ما تيسر لصوص بني النمر بن قاسط، وفوق ذلك تغترف منها قيس وقحطان وبنو بكر غرفات عظيمة!! وأخيرًا يختم أبو نواس بلغة التقزيم التي تكاد أن تكون مجهرية عندما يصور هذه القدر يوم رحيل بني رقاش - إذ كان من عادة كرماء العرب أن يفردوا الإبل العظيمة لحمل القدور العظيمة - أما قدر الرقاشيين هذه فأمر حملها موكل إلى الذر!، ولا يمر الأمر دون مزيد من الإيغال والسخرية، لأنه إنما يحملها صغار الذر والحولي منها دون كبارها!!.

وفي قدر أخرى يقول أبو نواس[٩٢]:

أطرفها بقـدرك لـولا أنهـا غبرت ومـا تطـوز بهـا نـار ولا رسـم

تاهت على غيرها أن أذنها سلمت ومـا تعاورهـا في مطـبخ خـدم

تضيء سكينها في كل نائبة إذا تدنـست الـسكين والبـرم

لو أن عرضك ذا في طهر قدرك ما داناك في المجد لا كعب ولا هرم

فأبو نواس هنا يهجو هذا الرجل بالبخل الشديد وعدم الطبخ والإطعام والقرى، وهو يتوسل إليه بالتركيز على قدره هذه المغبرة التي لا عهد لها بنار ولا قتر ولا دخان،

كما أنه لا عهد لها بالتحريك والحمل قد سلمت عراها من أيدي الخدم والطباخين والسعاة بالطعام نحو الأضياف، وما ينطبق على هذه القدر ينطبق على ما يرافقها في المطابخ ولاسيما السكين، فإنها الأخرى لا عهد لها بما يقطع بها من لحم ونحوه، إنها في غاية النظافة والبريق بريئة من كل دسم ودنس، في وقت تدنست فيه قدور الكرام وسكاكينهم ويرمهم بالدسم والزاد. وبكل خبث يقابل أبو نواس بين فكرتي الطهر والدنس في قدر مهجوه وعرضه ساخرًا منه سخرية مرة ناصبًا إياه نكرة قزمًا أمام ذوي المجد والكرم الباذخ ككعب ابن أمامة الإيادي وهرم بن سنان.

وفي مقطوعة أخرى لأبي نواس يكرر هجومه على قدر الرقاشيين ساخرًا منها ومنهم ومن كرمهم الفياض على نهج قريب من نهجه السابق في التحقير والتهوين والتقزيم من خلال رسم صور كاريكاتورية جديدة، يقول أبو نواس (٩٢):

ودهماء ترسيها رقاش إذا شتت ... مركبة الأذان أم عيال

تغص بحيزوم الجرادة صدرها ... وينضج ما فيها اتقاد ذبال

وتغلي بذكر النار من غير حزها ... وينزلها الطاهي بغير جمال

ولو جئتها ملأى عبيطا منزلا ... لأخرجت ما فيها بعود خلال

هي القدر قدر الشيخ بكرين وائل ... ربيع اليتامى عام كل هزال

فهي قدر عظيمة راسية من قدور راسيات تعالجها رقاش إذا شتت واشتدت حاجة القوم والأضياف إلى الطعام والقرى، وهي ذات حلق عظيمة يستعان بها على حملها وتتقابل فيها الرجال الأشداء، وهي من الجياع بمثابة الأم من العيال!، ثم إنها بعد ذلك يغص صدرها بصدر الجرادة لا تكاد تلج فيه، أما وقودها وحطبها الجزل العظيم الذي لابد أن يحمله الحطابون إليها من أول النهار فذبالة قد أشمت رائحة الدهن، لا بل إن هذه القدر تغلي وينضج ما فيها بمجرد ذكر النار حولها، وإن طباخها لينزلها بين أصبعين من غير وقاية يجعلها دونها، أما ما فيها من لحوم وشحوم فيكفي لاستخراجها عود من أعواد الخلال التي تخلل بها الأسنان!.

وأخيرًا يختم أبو نواس سلسلة سخرياته عندما يقول عنها بصيغة الخبر الذي لا يحتمل الشك: إنها قدر بكر بن وائل ذلك الشيخ الذي يضرب المثل بكرمه وجوده، حتى لكأنه الربيع والخصب عام القحط والجدب.

ويمضي أبو نواس في هجومه الكاسح على بني رقاش معيرا إياهم بالبخل، متخذا من القدر وما يحيكه حولها من مقولات وقصص وما يرسمه لها من صور خرافية ساخرة موئلا لما يرميهم به من العار والشنار حيث يقول[٩٤]:

قدر الرقاشي مضروب بها المثل ... في كل شيء خلا النيران تبتذل

تشكو إلى قدر جارات إذا التقيا ... اليوم لي سنة ما مسني بلل!

فهو يبلغ من التشهير بهم والتشنيع عليهم أن يجعل قدرهم مضربا للمثل بين العرب، إنها قدر مبذولة متعبة مستعملة ليل نهار لا راحة لها إلا من شيء واحد هو النيران، فهي في مأمن من مسها وعذابها وقترها لم ترها مذ وجدت في بني رقاش!، ولا عجب إذا كانت هذه القدر تشكو إلى صويحباتها من القدور بأنه لا عهد لها بالبلل منذ عام مضى!، لقد أنطق أبو نواس هذه القدر لتشهد على القوم بكل ما كان من أحوالهم!.

أما ابن الرومي فيهجو مهجوه الشهير (عيسى) الذي أصبح أمثولة بين معاصريه، يهجوه بالبخل الشديد من خلال التركيز على خوانه وتصويره تصويرا ساخرا حيث يقول[٩٥]:

خوان عيسى من نصف ترمسة ... وصحفتاه من فلقتي عدسة

ذلك فضل الإله يمنحه ... من شاء لا ذاك حظ من نفسه

من ذرة ذرة جرادقه ... تخفى على العين فهي ملتمسه

لو تخلت بالحرير لانسربت ... من خلل النسج غير محتبسة

إذا افترست الرغيف أن له ... كأن ليثا هنالك افترسه

حتى إذا ما طفقت تأكله ... صعد من فرط حسرة نفسه

كأنما كل لقمة أكلت ... منزوعة من يديه مختلسه

فانظر إلى أسلوب التقزيم الذي ينهجه ابن الرومي مشبها في ذلك أسلوب أبي نواس مع قدر الرقاشيين في مقطوعتيه السابقتين، فخوان عيسى في عدسة ابن الرومي المجهرية من نصف حبة من حب نبات الترمس، وجانباه من فلقتي حبة عدس!!، ثم يعقب ابن الرومي

على عظمة هذا الخوان بقوله: ذلك فضل الإله يمنحه من شاء، وأنه لا سبيل لكل من أراد أن يحصل على مثل هذا الخوان أن يحصل عليه ببلائه وجهده ومنتهى كرمه، أما خبزه الذي يطرحه لضيفانه على هذا الخوان فهو الأعجب والألطف والأدق والأخفى، فما هو إلا ذرات هباء هيهات أن تدركها العين فلا سبيل للعثور عليها إلا باللمس والتقري بالأنامل، كيف لا وهي من الضآلة واللطف بحيث لو تلقفت بملحفة حرير لسقطت من مسامها! ومع ذلك كله فإن عيسى لأغير غيور على رغفانه، فمتى ما شرع ضيف في الاقتطاع منها فإنه يسمع له أنينا ينبئ عن توجعه وألمه وكأنما افترسه أسد هصور، ولا يزال في كربه ما امتدت يد ضيفه إلى خبزه، أما عندما يتم التقام الرغيف ومضغه وازدراده فإن عيسى يصعد في أنفاسه وكأنما توشك روحه أن تفيض إلى بارئها! وهو لا يزال في محنة مستطيرة يرقب أضيافه ويطشهم برغفانه حتى لكأنما تنزع كل لقمة يلتقمونها من يده!!.

أما دعبل بن علي الخزاعي فيتوسع في هذا الاتجاه ممتدا إلى ما هو أوسع من القدور مستهدفا مهجوه بحصال البخل لاسيما البخل بالطعام والطبيخ متوخيا خصوصية حضرية تتمثل في المطابخ التي يتخذها الحضر في بيوتهم، فيهجو بخيلا نزل دعبل عليه ضيفا في بيته فنزل بواد غير ذي زرع، فبحث الضيف في غيبة مضيفه عن شيء يأكله وقصد المطبخ لعل وعسى، لكنه فوجئ بأن صاحبه قد أقفل مطبخه، فقال دعبل[٩٦]:

أتقفل مطبخا لا شيء فيه ... من الدنيا يخاف عليه أكل؟!

فهذا المطبخ استوثقت منه ... فما بال الكنيف عليه قفل؟!

ولكن قد بخلت بكل شيء ... فحتى السلح منك عليه بخل!

وسخرية دعبل هنا لا تقف عند حدود المطبخ وصنيع صاحبه فيه، لكنه يعديها في لفتة سخرية ماكرة إلى ذلك (الخلاء) المقفل هو الآخر، ليسجل على هذا البخيل نقطة ثقيلة لا عهد لأحاديث البخل وفنون البخلاء بها، وليصم هذا البخيل لا بمعرة البخل فحسب بل وبتقذارته كذلك. ويهجو ابن الرومي أبا المستهل الشاعر فيقول[٩٧]:

وشاعر أجوع من ذيب ... معشش بين أعاريب

سلته أقفز من سبسب ... فيها طراز للعناكيب

لا مستهل فيه يكنى ... غير سلاح كالميازيب

فابن الرومي هنا يهجو أبا المستهل بالجوع والتطفيل، ويشبهه بذئب يتربص بفرائسه بين أحياء العرب، وذلك لأنه لا هم له إلا تتبع الموائد ورصد أخبارها والتربص بها،

ثم إن ابن الرومي كان يشاهد معه سلة طعام يحملها كل ما رآه، لكن ابن الرومي لم يسبق له أن رأى فيها طعاما قط، وهنا يصعد سخريته منه ومن بخله ومن سلته عندما يصورها ذلك التصوير الطريف الذي لا يكاد يجاريه تصوير آخر في تجسيده لمراده (سلته أقفر من سبسب) ومن عادة السباسب وهي الصحارى الواسعة الممتدة أن تكون عامرة بالجدب والقحط مقفرة مما عداهما، وهي صفة عامة فضفاضة توخى منها وصف صاحبه بالبخل، لكن ابن الرومي يركز عدسته مزيدا من التركيز ليحصرها في هذه السلة، وقد عمرت بالدليل القاطع على أنه لا عهد لها بغير داخل ولا خارج، ولا علم لها حتى بيد تجوس من خلالها عل وعسى أن تجد فيها ما يسد الرمق، لقد سكنت هذه السلة وعمرت فيها المنازل، إنها منازل العناكيب وأعشاشها، إنها العناكيب التي لا عهد لها بمن يكدر صفوها أو ينغص أمنها في سلة أبي المستهل! ويختم ابن الرومي بشيء من التماجن المسف في حق مهجوه أبي المستهل كما لا يخفى على القارئ الكريم.

خاتمة:

كشفت دراستنا لقضية هجاء البخلاء في العصر العباسي من خلال صفحات هذا البحث عن تصاعد حاد في هذا الاتجاه، وإذا سلمنا بأن الهجاء كان دائما موضوعا مهما وغرضا رئيسا من أغراض الشعر العربي فإننا لا بد أن نضع في الحسبان أن ذلك الهجاء كان ينطلق في الغالب من منطلقات كثيرة متنوعة لا يمثل الهجاء بالبخل إلا أحدها.

وإذا سلمنا بأن الهجاء بالبخل كان على الدوام بابا مهما من أبواب الهجاء الرئيسة في الشعر العربي فإننا أيضا لابد أن نضع في الحسبان أنه لم يسبق لهذا الغرض أن طرق معنى البخل بمتعلقاته وتفريعاته وتفاصيله المختلفة كما طرقها في العصر العباسي.

ثم إن الأمر في ذلك كما تبين لنا جليًا من خلال طائفة كبيرة من النصوص لم يكن من قبل على ما كان عليه في العصر العباسي وذلك من نواح ثلاث:

الأولى/ ناحية الكم، فإن هجاء البخل والبخلاء ومتعلقاتهما فشا في العصر فشوًا لا سابق له حتى صارت قصائده ومقطعاته تشيع في معظم الدواوين وتنسب إلى معظم الشعراء إن لم يكن إلى جميعهم، وحتى أصبح من الصعوبة بمكان استقصاء نماذج الهجاء هذه أو تعقبها وحصرها والإحاطة بها.

الثانية/ ناحية الدقة واللطف في المعاني التي صار يهتدي إليها الشعراء أو يبتكرونها في كثير من الأحيان مظهرين في ذلك قدرة غير مسبوقة على الاستقصاء والتفتيت.

الثالثة/ ناحية السخرية وروح النكتة والهزل التي طبعت كثيرًا من قصائد الهجاء ومقطعاته بعامة وقصائد ومقطعات هجاء البخل والبخلاء بخاصة، حتى فشا ذلك اللون من التصوير الكاريكاتوري الساخر الذي تجاوزت روح السخرية والفكاهة والإضحاك فيه روح الهجاء التقليدية الغاضبة والحادة.

والناظر في ذلك كله لابد أن يدرك أثر الحضارة العباسية وما كان يعيشه العباسيون من حالة التمدن والخصب العقلي والمعرفي والترف الاجتماعي في ترقيق عاطفة العباسيين وكسر حدة الطباع التي طالما طبعت شعر الهجاء عند العرب في سالف العصور.

الهوامش

(1) ديوان بشار بن برد ص٢٩٨، طبعة دار صادر بيروت، ط٢ عام ١٤٣١هـ٢٠١٠م.
(2) ديوان عنترة بن شداد بتحقيق حمدو طماس، ص٢٨، دار المعرفة للطباعة والنشر، عام ٢٠٠٢م.
(3) ديوان حاتم الطائي وأخباره صنعة يحيى بن مدرك الطائي رواية هشام بن محمد الكلبي ص٥٣، دراسة وتحقيق د. عادل سليمان جمال، طبعة مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١١هـ١٩٩٠م.
(4) شعر عروة بن الورد رواية ابن السكيت بتحقيق أسماء أبو بكر محمد، ص٦٤، دار الكتب العلمية بيروت عام ١٤١٨هـ١٩٩٨م.
(5) مظاهر الشعوبية في كتاب ألف ليلة وليلة لعبد اللطيف ذياب أحمد، ص٥٣.
(6) ديوان حاتم الطائي وأخباره صنعة يحيى بن مدرك الطائي رواية هشام بن محمد الكلبي ص٧٨، دراسة وتحقيق د. عادل سليمان جمال، طبعة مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١١هـ١٩٩٠م.
(7) ديوان طفيل الغنوي ص٤٢، شرح الأصمعي تحقيق حسان فلاح أوغلي، طبعة دار صادر بيروت عام ١٩٩٧م.
(8) ديوان الحطيئة ص٢٥٦.
(9) ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، بتحقيق مجيد طراد، دار الكتاب العربي. بيروت ١٤١٥هـ١٩٩٤م.
(10) ديوان الحطيئة ص١٠٢.
(11) ديوان الأخطل، صنعة السكري برواية ابن حبيب، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، ج٢ ص٦٣٦ دار الآفاق الجديدة بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ١٩٧٩م.
(12) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ص٣٦٢.
(13) الفهرست لابن النديم ص١٧٤.
(14) العصر العباسي الأول للدكتور شوقي ضيف ص٥٢٨.
(15) كتاب البخلاء لأبي عثمان بن عمر بن بحر الجاحظ ص٨ وما بعدها (ملتزم الطبع الحاج محمد ساسي) مطبعة الجمهور بالقاهرة ١٣٣٣هـ.
(16) انظر كتاب الظرائف واللطائف والبواقيت في بعض المواقيت لأبي منصور عبد الله بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، نشر دار الآفاق العربية، الطبعة الثانية عام ٢٠١١م.
(17) ديوان دعبل ص٦٧.
(18) ديوان ابن الرومي ٦/ ١١.
(19) ديوان ابن الرومي ١/ ٤٥٨.
(20) ديوان بشار بن برد ص ١٥٩.
(21) ديوان بشار ص ٤١٧.
(22) ديوان ابن الرومي ٢/ ٤٨.
(23) ديوان ابن الرومي ٢/ ١٦٠.
(24) ديوان ابن الرومي ٢/ ١٦٠.
(25) ديوان أبي العتاهية ص ٥٢٠.
(26) ديوان أبي نواس ص ٥٢٠.
(27) ديوان علي بن جبله (العكوك) جمعه وحققه وقدم له د. حسين عطوان ص ١٠٨ الطبعة الثالثة عن دار المعارف بمصر.
(28) ديوان دعبل أ ١٦٢.

(29) ديوان ابن الرومي ٥/ ١٣٤.
(30) ديوان دعبل ص: ١٢٤.
(31) ديوان ابن الرومي ٢/ ٣٣٧.
(32) ديوان دعبل الخزاعي ص ١٦٥.
(33) ديوان دعبل ص ١٧٤.
(34) والأبيات في ديوان بشار ص ٤١٤، وبعدها زيادة ثلاثة أبيات أولها قوله:
إذا سلم المسحكين طار فؤاده مخافة سؤل واعتراه جنون
(35) انظر: المستطرف ص ١٨٦.
(36) انظر المستطرف ص١٨٦.
(37) المستطرف للأبشيهي ص٢٥٧.
(38) المستطرف للأبشيهي ص ١٨٧.
(39) المستطرف للأبشيهي ص ١٨٤.
(40) المستطرف للأبشيهي ص ١٨٤
(41) المستطرف للأبشيهي ص ١٨٤
(42) ديوان البحتري ٤/ ٢٣٢٢.
(43) ديوان البحتري ٤/ ٢٢٨٠.
(44) ديوان أبي تمام ٤/ ٣٥٠ تحقيق: محمد عبده عزام عن دار المعارف بمصر عام ١٩٧٠م.
(45) ديوان ابن الرومي ١/ ١٣٢.
(46) داء الذيب من أسماء الجوع عند العرب.
(47) ديوان ابن الرومي ٢/ ١٠٦.
(48) ديوان ابن الرومي ٢/ ٢٩٢.
(49) ديوان المتنبي بشرح العكبري ضبط وتصحيح وفهرسة: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي جـ٢ ص ٤١ عن دار المعرفة بلبنان عام ١٣٩٧هـ ١٩٧٨م.
(50) المستطرف ص ١٨٥.
(51) ديوان كشاجم دراسة وشرح وتحقيق د. النبوي عبد الواحد شعلان ص ٤٠٨ الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٧م مكتبة الخانجي.
(52) القدم: الغليظ السمين الأحمق الجافي، رضوى: جبل معروف في جزيرة العرب.
(53) ديوان ابن الرومي ٦/ ٨.
(54) اللقم: هو التقام الطعام والتهامه.
(55) الكنينة: المظلة.
(56) خان: هو ملك الترك، وناعط قبيلة من همدان.
(57) ديوان دعبل الخزاعي ص ٩١.
(58) ديوان ابن الرومي ٢/ ٣٣٢.
(59) دهنشار كلمة فارسية بمعنى الفسق، والدردور دوامة الماء التي تدور وتبتلع الأشياء.
(60) ديوان البحتري ١/ ٢١٥.
(61) ديوان ابن الرومي ١/ ٤٤٢.
(62) الجلحت: الصلع الشديد حسبما أراده هنا، والأجلح هو منحسر شعر مقدم الرأس.
(63) البذنخت: كلمة أعجمية ولعلها أسم لموضع أو بلده.

(64) جيرفت: مدينة فارسية من إقليم كرمان (معجم البلدان ٢/ ١٩٨).
(65) شقت: كلمة أعجمية لم نقف على معنىً لها، ولعلها اسم الآلة.
(66) ديوان أبي نواس ص: ٥٦٤.
(67) الحراق: جمع حارق وهم الشواؤون والقلاؤون والفحامون.
(68) ديوان ابن الرومي ٢/ ١٨٨.
(69) ديوان أبي نواس ص ٥٢٨.
(70) ديوان جرير ص ٤٧.
(71) ديوان دعبل الخزاعي ص ١١٧.
(72) ديوان ابن الرومي ١/ ١٥٤.
(73) ديوان ابن الرومي ٢/ ٢٠١.
(74) ديوان دعبل بن علي الخزاعي ص ١٥٢.
(75) ديوان أبي نواس ص ٥٢٤.
(76) ديوان أبي نواس ص ٥٢٤.
(77) ديوان أبي نواس ص ٥٢٥.
(78) ديوان ابن الرومي ٤/ ١٣٦.
(79) ديوان دعبل ص ١٧٢.
(80) ديوان دعبل ص ١٧٢.
(81) ديوان ابن الرومي ٤/ ٤٩.
(82) ديوان أبي نواس ص ٥٣١.
(83) ديوان أبي نواس ص ٥٣٢.
(84) ديوان أبي نواس ص ٥٣٣.
(85) انظر ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي ص ١٣٦.
(86) ديوان أبي الشمقمق: بتحقيق واضح محمد عبد الصمد الطبعة الأولى ص ٢٤ دار الكتب العلمية ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.
(87) ديوان أبي نواس ص ٥١٥.
(88) ديوان أبي نواس ص ٥١٥.
(89) ديوان أبي نواس ص ٥٢٨.
(90) المستطرف للأبشيهي ص ١٨٤.
(91) ديوان أبي نواس ص ٥٣٦.
(92) ديوان أبي نواس ص: ٥٦٢.
(93) ديوان أبي نواس ص ٥٣٧.
(94) ديوان أبي نواس ص٥٣٧.
(95) ديوان ابن الرومي ٣/ ٢٥٩.
(96) ديوان دعبل بن علي ص ١١٠.
(97) ديوان ابن الرومي ١/ ٣٦٠.

ثبت المصادر والمراجع

١- البخلاء لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، طبعة الحاج محمد ساسي، مطبعة الجمهور بالقاهرة ١٣٢٣هـ.

٢- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٨٥م.

٣- ديوان ابن الرومي بشرح وتحقيق عبد الأمير مهنا عن مكتبة الهلال بيروت لبنان الطبعة الأولى عام ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٤- ديوان أبي الشمقمق: بتحقيق واضح محمد عبد الصمد الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٥- ديوان أبي العتاهية، تحقيق د. شكري فيصل، دار الملاح، دمشق.

٦- ديوان أبي تمام، تحقيق: محمد عبده عزام عن دار المعارف بمصر عام ١٩٧٠م.

٧- ديوان أبي نواس حققه وضبطه وشرحه أحمد عبد المجيد الغزالي عن دار الكتاب العربي بيروت لبنان.

٨- ديوان الأخطل التغلبي، صنعة السكري برواية ابن حبيب، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٩- ديوان البحتري تحقيق وشرح وتعليق حسن كامل الصيرفي الطبعة الثانية عن دار المعارف بمصر.

١٠- ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت، قدم له ووضح هوامشه وفهارسه د. حنا نصر الحتي، دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الثانية عام ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١١- ديوان المتنبي بشرح العكبري ضبط وتصحيح وفهرسة: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي عن دار المعرفة بلبنان عام ١٣٩٧هـ ١٩٧٨م.

١٢- ديوان بشار بن برد، طبعة دار صادر بيروت، ط٢ عام ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

١٣- ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، بتحقيق مجيد طراد، دار الكتاب العربي. بيروت ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

١٤- ديوان جرير بن عطية بعناية إيليا حاوي طبعة دار الكتاب اللبناني.

١٥- ديوان حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره، صنعة يحيى بن مدرك الطائي رواية هشام بن محمد الكلبي، دراسة وتحقيق د. عادل سليمان جمال، طبعة مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

١٦- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري وضعه وصححه عبد الرحمن البرقوقي طبعة دار الكتاب العربي. بيروت عام١٤٠١هـ/١٩٨١م.

١٧- ديوان دعبل بن علي الخزاعي شرحه حسن حمد عن دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

١٨- ديوان طفيل الغنوي، شرح الأصمعي تحقيق حسان فلاح أوقلي، طبعة دار صادر بيروت عام ١٩٩٧م.

١٩- ديوان عروة بن الورد برواية ابن السكيت بتحقيق أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، عام ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

٢٠- ديوان علي بن جبله (العكوك) جمعه وحققه وقدم له د. حسين عطوان ص ١٠٨ الطبعة الثالثة عن دار المعارف بمصر.

٢١- ديوان عنترة بن شداد بتحقيق حمدو طماس، دار المعرفة للطباعة والنشر، عام ٢٠٠٣م.

٢٢- ديوان مكشاجم دراسة وشرح وتحقيق د. النبوي عبد الواحد شعلان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، مكتبة الخانجي.

٢٣- الظرائف والطرائف واليواقيت في بعض المواقيت لأبي منصور الثعالبي، دار الآفاق العربية، الطبعة الثانية عام ٢٠١١م.

٢٤- العصر العباسي الأول د. شوقي ضيف، الطبعة السادسة، دار المعارف بالقاهرة.

٢٥- الفهرست لابن النديم تحقيق رضا تجدد طبعة طهران عام ١٣٩١هـ.

٢٦- المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي، شرحه ووضع هوامشه د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٧- مظاهر الشعوبية في كتاب ألف ليلة وليلة لعبد اللطيف ذياب أحمد دار الكتب العلمية بيروت.